من

داروين

إلى

هتلر

كتاب وايكارت المدهش يوضح بتفاصيل رصينة ومقنعة كيف طور المفكرين الداروينيين في ألمانيا اتجاه لأخلاقي تجاه المجتمع الإنساني في وقت الحرب العالمية الأولى... بدون الإفراط في اختزال الخطوط التي أوصلت نوعية الأفكار هذه إلى هتلر، شرح بوضوح هادئ كيف كان الكتَّاب والعلماء الداروينيون يقترحون سياسات مثل وأد الأطفال والانتحار بمساعدة الغير وموانع الزواج وغيرها، على أولئك الذين اعتبروا أدنى من الناحية العرقية أو الجينية، مقدمين لهتلر والنازيين تبريرا علميا للسياسات التي اعتنقوها بمجرد أن وصلوا إلى السلطة.

ريتشارد إيفانز

أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة كيمبردج

هذا الكتاب هو واحد من أجود الأمثلة في التاريخ الفكري التي رأيتها منذ زمن بعيد... يقدم فيه مؤلفه فحص مُتمرِس وشديد الدقة للعديد من المفكرين الألمان –في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين– الذين تأثروا بدرجة أو بأخرى بالطبيعانية الداروينية وأفكارها، ويرسم صورة دقيقة للتشابهات والاختلافات، وفي الطريق يروي قصة غنية ونابضة لما حدث.

آيان دويجين

أستاذ التاريخ في جامعة جزيرة الأمير إدوارد بكندا

من داروين إلى هتلر

الأخلاق التطورية واليوجينيا والعنصرية في ألمانيا

د. ريتشارد وايكارت

أستاذ التاريخ الأوروبي المعاصر

بجامعة ولاية كاليفورنيا

ترجمة:

جنات جمال - يسرا جلال

مركز براهين للأبحاث والدراسات

Braheen Center for Research and Studies

من داروين إلى هتلر

الأخلاق التطورية واليوجينيا
والعنصرية في ألمانيا

From Darwin to Hitler

Evolutionary Ethics, Eugenics
and Racism in Germany

د. ريتشارد وايكارت

Richard Weikart

ترجمة: جنات جمال - يسرا جلال

مراجعة لغوية: حسين السيد

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٩

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤

عدد الصفحات: ٥٠٠

الترقيم الدولي: ٣-١١-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات

أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) - ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

بريد المبيعات: sales@braheen.com

صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

From Darwin to Hitler: Evolutionary Ethics, Eugenics and Racism in Germany by **Richard Weikart**
First published in English by **Palgrave Macmillan**, a division of **Macmillan Publishers Limited** under the title **From Darwin to Hitler** by **Richard Weikart**. This edition has been translated and published under licence from **Palgrave Macmillan**. The author has asserted his right to be identified as the author of this Work.
Arabic Language Translation Copyright © 2019 by **Braheen Center**

عن المؤلف

حصل ريتشارد وايكارت على الدكتوراه في التاريخ من جامعة أيوا في ١٩٩٤، وهو أستاذ التاريخ الأوروبي المعاصر في جامعة ولاية كاليفورنيا بستانيسلوس. ألف العديد من الكتب التي تفحص التبعات التاريخية للداروينية الاجتماعية والأيديولوجيات المشابهة، ويعتبر من أشهر المؤرخين المتخصصين في هذا الملف. من مؤلفاته: (من داروين إلى هتلر: الأخلاق التطورية واليوجينيا والعنصرية في ألمانيا) و(أخلاق هتلر: سعي النازيين للتقدم التطوري) و(دين هتلر: العقائد الملتوية التي قادت الرايخ الثالث) وآخر كتبه (موت الإنسانية وقضية الحياة).

لماذا هذا الكتاب؟!

لا شك أن الأفكار لها تبعات، لا أحد يجادل في ذلك. لكن، ما مدى مسؤولية المفكر عن تبعات فكرته؟ خاصة تلك التي طُورِت بعد مماته؟

هذا هو السؤال المركزي الذي شغل مؤلف هذا الكتاب، ودار بحثه كله لمحاولة الوصول إلى إجابة له. حلق وايكارت غربا وشرقا ليجمع شتات نطاق واسع من البرامج والمؤسسات والمفكرين الذين شكلوا الفكر الداروينى الاجتماعي والسياسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في ألمانيا. وسار في طريق شاق في بحثه، والعديد من المصادر التي أخرجها في هذا الكتاب لم يسبقه إليها أحد، مما يجعل بحثه فريد في بابه، وضروري لكل من يريد أن يقرأ عن الداروينية الاجتماعية.

انطلق وايكارت في هذا البحث الجاد، ليشرح تأثيرات الداروينية الخطيرة والجذرية على الأخلاق. ويوضح كيف أن العديد من رواد البيولوجيا التطورية في ألمانيا وكذلك المفكرين الاجتماعيين، آمنوا أن الداروينية أطاحت بالأخلاق المسيحية واليهودية وحتى أخلاق التنوير، خاصة تلك المتعلقة بقدسية حق الإنسان في الحياة. العديد من هؤلاء آمنوا بنسبية الأخلاق، والأدهى من ذلك أنهم اتخذوا من مبدأ (البقاء للأصلح) التطوري مرجعية أعلى للأخلاق. خَلُص وايكارت في بحثه إلى أن الداروينية لعبت دورًا رئيسيا، ليس فقط في قيام اليوجينيا —تحسين النسل عن طريق التخلص من جينات الأعراق غير المرغوب فيها— ولكن أيضا في قيام اليوثنيچيا —القتل الرحيم—، ووأد الأطفال، والإجهاض، والإبادات العرقية.

مثلت تلك الأمور قواعد الإيمان لدى النازيين. وعلى عكس ما يشاع من أن منطلقات هتلر كانت عدمية، يثبت وايكارت أن مبادئه الأخلاقية كانت داروينيةً تمامًا.

كيف ذلك؟ وما علاقة نظرية بيولوجية بالفكر النازي؟ وهل الهولوكوست هو النتيجة الحتمية للداروينية؟ هذا الكتاب كله في بيان ذلك. لكن كما ختم المؤلف كتابه، نقول: "لم تنتج الداروينية وحدها الهولوكوست، لكن بدون الداروينية –خاصة تفرعاتها من داروينية اجتماعية وتوجهات التحسين المستقبلي للعرق– لم يكن لهتلر أو أتباعه النازيين الأسس العلمية الضرورية لإقناع أنفسهم وأعوانهم **أن إحدى أعظم الفظائع المرتكبة في العالم كانت بالحقيقة محمودة أخلاقيا**. لقد نجحت الداروينية، أو على الأقل بعض تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب".

نأمل أن يرتقي هذا الكتاب بمستوى الطرح في القضايا المرتبطة بالعلم والدين في عالمنا العربي، وأن يدفع الباحثين نحو جدية أكثر في العرض والتناول. ولعلنا نتخذ من الصرامة البحثية التي انتهجها المؤلف في هذا الكتاب مثالا يحتذى به، نحو طرح فكري أرقى.

مركز براهين

تمهيد

لقد أصبحت شغوفا بالأخلاق التطورية أثناء إعدادي لأطروحتي (الداروينية الاجتماعية: التطور في الفكر الاجتماعي الألماني من ماركس حتى برنشتاين :Socialist Darwinism Evolution in German Socialist Thotght from Marx to Bernstein) والتي نشرت في ١٩٩٩. لم يخطر ببالي قط، الطريق الذي ستسير فيه الدراسة. فبينما كنت أفحص الخطاب الداروينى في ألمانيا، وجدت أن معظم الداروينيون يعتقدون أن للداروينية تبعات ثورية على الأخلاق والقيم، وأنها تقدم أسسًا جديدة للأخلاق والقيم، وتطيح بالنظم الأخلاقية التقليدية. حفزتني هذه الأفكار على البحث في الأخلاق التطورية، وكنت في البداية أنوي فقط أن أقوم بوصف وتحليل تقدم الأخلاق التطورية في ألمانيا وفي أي مكان آخر. ولكن بمجرد قراءتي لكتابات (إرنست هيكِل Ernst Haeckel) وغيره من الداروينيين الأوائل، تحول تركيزي إلى مجال أخلاقي بعينه؛ وهو ما يسمى اليوم بأخلاقيات الطب الحيوي biomedical ethics.

أحد أسباب هذا التحول هو دراستي لأعمال إرنست هيكِل نفسه، والتي للمفاجأة، دافع فيها عن قتل الرضع المصابين بإعاقات معينة. ثم اكتشفت أن هناك الكثير من اليوجينيين الألمان كتبوا مقالات وفقرات في كتبهم عن كيفية تطبيق الداروينية على الأخلاق والقيم. لم يكن مقررًا أن يقوم اليوجينيون بدور مهم في هذه الدراسة، ولكني لم أتمكن من استبعادهم؛ فقادة الحركة اليوجينية (حركة تحسين النسل) كانوا من أبرز الداعمين للأخلاق التطورية.

أخيرًا —وبالتأكيد ليس آخرًا— أثار انتباهي كتاب (جيمس ريتشلز James Rachels) الذي صدر في أكسفورد عام ١٩٩٠ (مخلوقون من الحيوانات: التبعات الأخلاقية للداروينية Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism). يذكر ريتشلز أن الداروينية تقوض قدسية الحياة البشرية، ويبدو دعمه للقتل الرحيم شبيهًا

بأفكار صادفتها في ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. كتاب ريتشلز، بالإضافة إلى آراء هيكل وبعض أنصار الداروينية الاجتماعية واليوجينية، اقترحوا علي البحث عن إجابة سؤال جديد: هل استخدم الداروينيون الألمان النظرية الداروينية لتحطيم مبدأ قدسية الحياة البشرية؟ أو بصياغة أخرى: ماذا تقول الداروينية أو حتى المتأثرين بها عن قيمة حياة الإنسان؟ بعد أن صغت السؤال بهذه الطريقة، انبثقت موضوعات أخرى تتعلق بالموت والحياة، وتحديدا بالحروب والصراعات العنصرية.

بعد أن أعدت صياغة أطروحتي عن الأخلاق التطورية لتشمل قيمة الحياة البشرية، كان هناك موضوعًا جديدًا يصعب الهروب منه؛ ألا وهو تأثير هذا الخطاب على هتلر. لم يكن هتلر في البداية ظاهرًا أمامي في الصورة، ومحاولة (دانيال جاسمان Daniel Gasman) الأحادية للربط بين هيكِل وهتلر جعلتني أقلق. ولكن كلما زادت قراءتي في كتب ومقالات الداروينيين واليوجينيين في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وكذلك قراءتي عن هتلر، كلما ازددت اقتناعًا بوجود رابط تاريخي واضح بين الداروينية وبين أفكار هتلر. سأترك القارئ ليقرر بعد الانتهاء من قراءة أطروحتي إن كان الطريق بين هتلر والداروينية مستقيمًا أو منحرفًا. ودوري في هذه الأطروحة مقتصر على إظهار هذا الطريق من زمن داروين وحتى الحرب العالمية الأولى تقريبًا (في حالة هتلر، امتد النقاش زمنيًا لما بعد الحرب العالمية الأولى نظرًا لأن معظم خطب هتلر وكتاباته كانت بعد الحرب العالمية الأولى).

بعض المواد المعروضة في هذا الكتاب ظهرت من قبل في مقالات دورية مثل: (أصول الداروينية الاجتماعية في ألمانيا، من ١٨٥٩ إلى ١٨٩٥) و(الداروينية والموت: الحط من قيمة الحياة في ألمانيا، من ١٨٦٠ إلى ١٩٢٠)، و(تطور الإبادة العنصرية في الداروينية واليوجينية والسلمية في ألمانيا، من ١٨٦٠ إلى ١٩١٨). والفضل يرجع للقراء المجهولين ولمحرر مجلة الدراسات الألمانية (ديتهيلم بوڤا Diethelm Prowe)، لتعليقاتهم الثرية النافعة

على هذه المقالات.*

كذلك أود أن أتقدم بالشكر لأولئك الذين جعلوا من هذا الكتاب ممكنًا. أولا وقبل كل شيء جامعة ولاية كاليفورنيا في ستانيسلاوس؛ التي قدمت مراجع عديدة بالإضافة إلى منحهم إياي تفرغًا بحثيًا ومنحة بحثية. قسم الإعارة في مكتبة الجامعة (الشكر لـ جولي روبين Julie Reuben) قدم دورا محوريا للمشروع، ولولاه لكانت هذه الدراسة بالغة الصعوبة أو مستحيلة. أود أيضًا أن أشكر زملائي في قسم التاريخ على تشجيعهم المتواصل وإلهامهم. وجزيل الشكر أيضًا لمركز العلوم والثقافة (على الأخص جاي ريتشاردز Jay Richards وستيفن ماير Steve Meyer) على الدعم المادي الأساسي والتشجيع المستمر، الذي لولاه لاستغرقت هذه الدراسة وقتًا أطول. أود أيضًا أن أشكر مؤسسة تيمبلتون Templeton Foundation على تمويلهم لمؤتمر الكلية الصيفي لعام ٢٠٠١، والذي أقيم تحت عنوان: (البيولوجيا والهدف: الإيثارية والأخلاق والطبيعة الإنسانية في نظرية التطور Biology and Purpose: Altruism، Morality، and Human Nature in Evolutionary Theory) والذي ساهم كثيرًا في تحفيز تفكيري.

أود أيضًا أن أشكر العديد من المكتبات وسجلات الأرشيف التي سمحت باطلاعي على المعلومات التي احتجتها لإتمام هذا البحث؛ أذكر منهم : مكتبة جامعة كاليفورنيا في بيركلي University of California، Berkeley، وأرشيف ومكتبة جامعة ستانفورد Stanford University، ومعهد هووفر Hoover Institution، ومكتبة ولاية برلين للتراث الثقافي البروسي Staatsbibliothek zu Berlin Preußischer Kulturbesitz، وأرشيف

* "The Origins of Social Darwinism in Germany, 1859-1895," *Journal of the History of Ideas* 54 (1993): 469-88; "Darwinism and Death: Devaluing Human Life in Germany, 1860-1920," *Journal of the History of Ideas* 63 (2002): 323-44; and "Progress through Racial Extermination: Social Darwinism, Eugenics, and Pacifism in Germany, 1860-1918," *German Studies Review* 26 (2003): 273-94.

أكاديمية الفنون Akademie der Künste في برلين، وأرشيف جامعة همبولدت Humboldt University في برلين، وأكاديمية برلين براندنبورج للعلوم –Berlin Brandenburgische Akademie der Wissenschaften في برلين، والأرشيف الفيدرالي في كوبلنس Bundesarchiv Koblenz، ومكتبة ولاية بايرن Bayerische Staatsbibliothek في ميونخ، وأرشيف بيت إرنست هيكِل Ernst–Haeckel–Haus في يينا، وأرشيف جامعة فرايبورج University of Freiburg، وأرشيف جامعة زيوريخ University of Zurich، وأرشيف مدينة وولاية فيينا Wiener Land– und Stadtarchiv، ومكتبة النمساوية العامة Österreichische Nationalbibliothek في فيينا، ومركز الأبحاث ومركز توثيق الفلسفة النمساوية Forschungsstelle und Dokumentationszentrum für österreichische Philosophie في جراتس، وأرشيف عصبة الأمم League of Nations Archives في جنيف، وأرشيف جامعة جنيف University of Geneva، وأرشيف جامعة ڤروتسواف University of Wroclaw.

وشكر خاص لڤيلفريد بلوتس Wilfried Ploetz، الذي سمح لي بالاطلاع على أوراق والده ألفريد بلوتس Alfred Ploetz، وكان مضيافًا بحق.

استفدت كثيرًا من تواصلي مع زملاء كثر ساهموا بفعالية في تطوري الفكري، وبدونهم كان هذا المشروع مستحيلًا. أشكر أيضًا على وجه الخصوص ميتش آش Mitch Ash وألان ميجل Allan Megill لمساعدتي في استيعاب تاريخ ألمانيا الثقافي وتاريخ العلوم. وكذلك ممتن للغاية لإدوارد روس ديكينسون Edward Ross Dickinson لقراءة جزء من المخطوط ومراجعته وإضافة اقتراحات للتحسين، وكذا مشاركته في المؤتمر والمراسلات بيننا عبر البريد الإلكتروني. هناك الكثيرون أيضًا يصعب ذكرهم بالاسم ممن شاركوا في المؤتمر أو راسلتهم عبر البريد الإلكتروني، أو استفدت من كتبهم ومقالاتهم. وأي خطأ في البحث يبقى خطئي وحدي وما كان فيه من صواب فالفضل لهؤلاء الباحثين وغيرهم والكثير منهم

تجد اسمه في مسرد المصادر.

قام المحرر براندن أوميلي Brendan O'Malley بجهد رائع. حيث أبقاني على معرفة دائمة بكل مرحلة من مراحل المراجعة وأجاب عن كل تساؤلاتي في وقت وجيز. جزيل الشكر له على كل ذلك.

أخيرًا أود أن أشكر والداي، راي ولويس، على دعمهم وتشجيعهم بشكل لا يمكن إحصائه. وأهدي هذا الكتاب لزوجتي؛ ليزا، وأبنائي الغاليين؛ جوي، وجون، وجوزيف، وميريام، وكريستين، وهانا. لقد أضفوا على حياتي بهجة بينما كنت منهمكًا في المشروع، وكانوا يذكرونني دائمًا بقيمة حياة النفس البشرية.

مقدمة

اشتعل الصراع بمجرد ظهور كتاب داروين (أصل الأنواع On the Origin of Species) في ١٨٥٩، ولم يقتصر الجدل على هل تنبثق الكائنات وحيدة الخلية بطرق طبيعية أم خارقة للطبيعة. ولكن العديد من معاصري داروين اعتبروا التطبيق الأخلاقي غير واضح، رغم أنه لم يناقش مسألة تطور الإنسان وتأثيرها على الأخلاق بشكل صريح إلا في العام ١٨٧١ في كتابه (أصل الإنسان The Descent of Man). جزء كبير من الاعتراضات المبدئية على الداروينية كان مصدره تهديدها الملموس للنظام الأخلاقي. آدم سيدچويك Adam Sedgwick نفسه، أستاذ داروين السابق للأحياء بجامعة كامبريدج عبر عن خوفه البالغ في خطاب أرسله لداروين عام ١٨٥٩. وفور قراءته لكتاب (أصل الانواع) قال لداروين: "هناك فقرات كاملة في كتابك... صدمت ذائقتي الأخلاقية".

وأوضح أيضا: "كما أن هناك جانب مادي للطبيعة، هناك أيضًا جوانب أخلاقية وميتافيزيقية، ومن ينفي ذلك يسقط في وحل الحماقة. إن ذروة عظمة العلوم الطبيعية أنها تربط المادة بالأخلاق... وقد تجاهلت أنت هذا الرابط، وإذا لم أخطئ في فهم مرادك، فقد حاولت جاهدا لكسر هذا الرابط في حالة هامة أو حالتين. وإذا أصبح كسر هذا الرابط بين المادة والأخلاق ممكنًا —وأشكر الرب أنه ليس كذلك— أظن أن الإنسانية ستعاني ضررًا قد يصيبها بالتوحش، وسيغرق الجنس البشري في أدنى درجات الانحطاط التي لم يسبق أن وصل إليها حسبما يوثق تاريخه المكتوب".[١]

لم يكن سيدچويك الوحيد الذي اتهم داروين بتحطيم الأخلاق. فقد كان تأثير الداروينية على منظومة الأخلاق هو المحرك الأساسي لحملة ويليام چينينجز براين William Jennings Bryan ضد الداروينية في مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة. وبصفته داعٍ للسلام فإن براين كان غاضبًا من الخطاب الداروينى للماديين الألمان، الذين حملهم

مسئولية نشوب الحرب العالمية الأولى. وبسبب ارتعابه من الذبح الفاجر لشعوب يفترض أنها متحضرة اتفق مع سيدچويك في أن للداروينية تأثير وحشي وانحطاطي على البشر. كما عبر ألمان آخرون عن قلقهم من التأثير الأخلاقي للداروينية؛ فقد أوضح الراهب البروتستانتي رودولف شميد Rudolf Schmid في كتابه الصادر في ١٨٧٦ أن الكثير من منتقدي الداروينية يعتبرونها "مجرد فرضية غير مثبتة، تهدد بإشعال النار في أنبل وأرفع إنجازات القرن المنصرم الثقافية، محولة إياها لكومة من رماد".[٢]

مازال الخلقويون يتهمون الداروينيين بتقويضهم لمنظومة الأخلاق بشكل روتيني، بينما على الجانب اللآخر يبتهج الداروينيون بالتحرر الأخلاقي للداروينية. مجّد دانيال دينيت Daniel Dennett –أحد أبرز الفلاسفة الماديين– (فكرة داروين الخطيرة Darwin's Dangerous Idea)، والتي وصفها بـ"حامض عالمي"، يأكل في طريقه كل المعتقدات التقليدية عن الدين والأخلاق. ذهب عالم الأخلاق الحيوية الشهير بيتر سينجر Peter Singer وزميله چيمس ريتشلز James Rachels إلى أنه بسبب تأثير الداروينية الرافض لمفهوم قدسية الحياة البشرية في التقاليد المسيحية اليهودية، فإن حالات الإجهاض والقتل الرحيم وقتل الأطفال ستُبرر أخلاقيًا. وبينما يرى كل من سنجر وريتشلز ذلك تحررًا أخلاقيًا، أظن أن سيدچويك كان من الممكن أن يعتبر آرائهم تأكيدًا على نبوءته بتوحش ميول الداروينية.

في الواقع لم يكن على سيدچويك الانتظار طويلًا لتتحقق مخاوفه. فقد بدأ الكثير من الداروينيين في أواخر القرن التاسع عشر في تطبيق الداروينية على أمور أخلاقية، من ضمنها التساؤل عن قيمة حياة الإنسان. عالم الحيوان الألماني روبي كوسمان Robby Kossmann، الذي أصبح لاحقًا أستاذًا في الطب، كان أكثر صراحة من غيره في مقاله "قيمة حياة الفرد في الرؤية الداروينية للعالم" في ١٨٨٠، حيث أعلن:

"إن الرؤية الداروينية للعالم يجب أن تنظر للمفهوم العاطفي الحالي لقيمة النفس البشرية كمفهوم مبالغ فيه يعرقل تقدم البشرية. وضع البشر —كغيرهم من المجتمعات الحيوانية— يجب أن يصل إلى أعلى درجات الكمال الممكنة، فعبر التخلص من العناصر الأقل موهبة لصالح الأفراد الأكثر موهبة لكسب مساحة أكبر لانتشار الذرية... وعلى الدولة أن تهتم بحفظ النوع والحياة المتميزة على حساب حياة الأقل تميزًا".[٣]

كانت آراء كوسمان عن الموت والحياة صادمة ومستفزة في وقته، ولكن كما سنرى، الكثير من نظرائه الداروينيين عبروا عن أفكار مشابهة.

ومع بدايات القرن العشرين انتشرت أفكار شبيهة بأفكار كوسمان على نطاق واسع، خاصة عند أنصار اليوجينية —التي تعرف نفسها على أنها علم تحسين النسل البشري— التي استلهمت أفكارها من الداروينية. على الرغم من ذلك، لم يتفق كل أنصار الحركة على أين يجب أن ترتكز الجهود. من يجب أن يتم إدخاله في الفئات "الأقل موهبة" و"الأقل تميزًا" التي ذكرها كوسمان؟ من هو الشخص الذي تعتبر حياته أقل قيمة؟ أو دعنا نستخدم التعبير الذي دأب اليوجينيون على استعماله؛ من هم الأدنى؟

من وجهة نظري، السؤال واحتمالات إجاباته خبيثة، لكن أنصار الداروينية الاجتماعية واليوجينية كانوا خائفين من مساهمة نواحي الحضارة الحديثة في الانحطاط البيولوجي. ركزت حملتهم لمحاربة الانحطاط المرعب على مجموعتين: المعاقون، والأعراق غير الأوروبية الأصل، ظنا منهم أنهما يهددان صحة وسلامة الجنس البشري. ورغم عدم اتفاقهم حول أي المجموعتين تشكل خطرًا أكبر، إلا أن الكثير منهم —إن لم يكن معظمهم— اعتبروا المعاقين وغير الأوروبيين (وأحيانا بعض الأوروبيين غير الجرمانيين) أجناس أدنى، وشعروا بضرورة القضاء عليهم بطريقة أو بأخرى، سواء الآن أو في المستقبل.

ومن بين هؤلاء الذين اعتنقوا الداروينية الاجتماعية ونسخة عنصرية من اليوجينية، ظهر هذا

السياسي الألماني نمساوي الميلاد، كان مجرد ذكر اسمه –هتلر– كفيلًا باستدعاء خيالات الشر والموت. ولأن هتلر كان رمزًا للشر، بينما كان لداروين مكانته العلمية المرموقة، فإن أية محاولة للربط بينهما تبدو غير منطقية. والسبب في ذلك منطقي؛ ببساطة داروين ليس هتلر. التمايز بين حياة الرجلين ووضعيهما كبير. داروين تجنب السياسة وتعامل مع منزله في مدينة داون كمعزل لإجراء أبحاثه البيولوجية وكتاباته. بينما كان هتلر زعيمًا للدهماء، يعيش ويتنفس على السياسة ويهيج مشاعر الحشود بخطاباته الحماسية.

سياسيًا، كان داروين ليبراليًا إنجليزيًا تقليدي، يدعم اقتصاد عدم التدخل ويعارض العبودية. وكمعظم معاصريه فإن داروين اعتبر العرقيات غير الأوروبية أدنى من العرق الأوروبي، إلا أنه لم يعتنق الآرية أو معاداة السامية الشرسة، والتي كانت الفكرة المركزية في فلسفة هتلر السياسية.

إذن ما هو الرابط بين الداروينية وهتلر؟ وهل هما مؤثران لهذه الدرجة؟ لعلنا نطرح السؤال بطريقة أخرى: هل اختطف هتلر الداروينية واتخذها رهينة لفلسفته السياسية الخبيثة؟ أم أنه فقط امتطاها وتركها تسير به إلى وجهتها؟ الرأي الأخير يمكن أن نبالغ في تبسيطه كالتالي: في البداية قوضت الداروينية منظومة الأخلاق التقليدية وقيمة النفس البشرية، ثم أصبح التقدم التطوري هو الضرورة الأخلاقية الجديد. ساعد هذا على ظهور الحركة اليوجينية، والتي أُسست بشكل صريح على مبادئ الداروينية. ثم بدأ بعض أنصارها في الدفاع عن القتل الرحيم وقتل الأطفال المعاقين. وعلى صعيد موازٍ، ذكر بعض الداروينيين أن الصراع العرقي البشري والحروب هي جزء من الصراع الداروين للبقاء. **خلط هتلر هذه الأفكار الداروينية الخبيثة مع معاداة السامية لينتج لنا؛ الهولوكوست.**

في الواقع، تحدث كثير من العلماء عن أهمية الداروينية، أو على الأقل الداروينية الاجتماعية، في تمهيد الأرض لظهور الأيدولوجيات النازية والهولوكوست.[٤] في دراسته عن تأثير الداروينية

الاجتماعية على تشكيل أيدولوجيات النازية، كتب هانز جونتر تسمارتسليك Hans-Günther Zmarzlik أن "تحليل خطاب الداروينية الاجتماعية يشي بعملية تردي للمعايير، مصاحبة برغبة في التضحية بالفرد لصالح النوع، للحط من قيمة فكرة المساواة الإنسانية إلى اعتبار عد المساواة (الطبيعية) بين البشر، للحط من قيمة قواعد المنظومة الأخلاقية لصالح الحاجات البيولوجية".[٥] مؤخرًا دافع ريتشارد إيڤانز Richard J. Evans عن موقف تسمارتسليك ضد أنصار التعديل التاريخي الذين يقللون من أهمية الداروينية الاجتماعية في مساعدة الأيدولوجيات النازية على الظهور.[٦]

الرأي المقابل الذي يقول إن هتلر اختطف الداروينية له أدلته المنطقية، فقد أوضح الكثير من الباحثين أن الداروينية لم تقد أحدًا لاعتناق فلسفة سياسية معينة أو ممارستها. الديموقراطيون الاجتماعيون الذين كانوا يحملون اعتمادات ماركسية معصومة كانوا متحمسين للداروينية واعتبروها ترسيخًا وتأكيدًا لرؤيتهم للعالم. وبعد قراءته لكتاب (أصل الأنواع) لداروين، كتب ماركس لفريدريك إنجلز: "رغم أنه كتب بطريقة إنجليزية خشنة، إلا أن هذا الكتاب يحمل تأصيلًا في علم الأحياء لأفكارنا".[٧] علاوة على ذلك، فإن الكثير من دعاة السلام ودعاة المساواة بين الجنسين والمدافعين عن تنظيم النسل ونشطاء حقوق المثليين

—الذين اضطهد النازيين بعضهم أو حتى قتلوهم— كانوا في الأساس داروينيون متحمسون، واستخدموا الداروينية لدعم أجندتهم السياسية والاجتماعية. الخطاب اليوجيني كان متوسطًا بين كل الأطياف السياسية، مما جعل المؤرخة آتينا جروسمان Atina Grossmann تقول باقتناع أن الطريق من اليوجينية والإصلاح الجنسي إلى النازية "طريق ملتف ومليء بالنزاعات".[٨] لم تكن النازية في حسابات الداروينيين أو اليوجينيين من البداية، ولا حتى في النسخ العنصرية من اليوجينية.

التكافؤ متعدد المستويات بين أيدولوجيات الداروينية والنازية، خاصة عند تطبيقها على المستويات الأخلاقية والسياسية والفكر الاجتماعي، بالإضافة للجذور المتعددة لأيدولوجيات النازية، يجب أن يقودنا للشك في دعاوى أحادية أصل النازية. وقد أصاب المؤرخ اليهودي ستيڤن أسكهايم Steven Aschheim حين حذرنا من التوقف عن محاولة تتبع المؤثرات الثقافية المؤدية للنازية، مهما كانت المهمة في غاية التعقيد. فإن كانت الداروينية لا تقود بوضوح تام إلى النازية، فإن هذا لا يعني إسقاط الداروينية من قائمة المؤثرات التي ساعدت هتلر على تكوين آرائه، وبالتالي مهدت الطريق للهولوكوست. يقول أسكهايم:

"من الواضح جدًا أن الطريق من داروين وڤاجنر ونيتشه، وحتى من العنصرية ومعاداة السامية، إلى النازية لم يكن سهلًا أو مباشرًا. بالطبع تؤدي الطرق المتباينة إلى اتجاهات متباينة. ولكن رغم أنها تبدو ملتوية إلا إن أحدها قاد إلى معسكرات أوشڤيتز Auschwitz.

مهما بلغت المخاوف من غائية البحث، لا يجب أن يفل هذا تصميمنا على فهم العملية والدوافع التي قادت —على الأقل في إحدى الحالات— إلى هذا المصير. أؤمن أن الخوف من تعقيد المسألة سبب واهٍ، لهجر التاريخ الثقافي".[٩]

لذلك، رغم إحاطتنا بالإمكانيات المتعددة للخطابات للداروينية واليوجينية والعنصرية في حقبة ما قبل النازية، إلا أننا لا يجب أن نغمض أعيننا عن التشابهات والتوازي بينها وبين الفكر النازي المتأخر. (أود هنا أن أوضح من البداية أنني رغم تركيزي على التأثير الثقافي للتاريخ، إلا إنني لاحظت أيضًا وجود تأثير سياسي واجتماعي واقتصادي —بالإضافة لعوامل أخرى— على تطوير الأيدولوجيات بوجه عام، والنازية بالأخص، ولكن هذه الموضوعات خارج نطاق هذه الدراسة.)

حافظ كيڤين ريب Kevin Ripp على هذا التوازن بدقة بالغة في عمله المبهر عن المصلحين

الاجتماعيين الألمان الفاعلين خلال القرن العشرين. نظرية ريب تقول أن الوسط الإصلاحي الاجتماعي في ألمانيا أثناء عصر ڤيلهيلم Wilhelm –والذي يضم بين أطيافه مصلحين أخلاقيين ويوجينيين (سيظهر اسم بعضهم في ثنايا هذه الدراسة)– يحوي احتمالات متباينة؛ بعضها حميد، وبعضها خبيث. كان هناك طرقًا عديدة نحو الحداثة، ومعظمها لا يقود لاتجاه النازية. إضافة لذلك، كان ريب يعلم أن بعض جوانب الإصلاح الاجتماعي الألماني في مطلع القرن العشرين ساهمت في تطور الأيدولوجيات النازية، كما ساهمت الداروينية بشكل محوري "في صناعة هذه الأيدولوجية المرتبكة والبشعة والممسوخة، رغم أن التوليفة النازية من الداروينية والمجتمع المحلي تدعم وجود أكثر من مجرد التشابه السطحي بمحاولات الإصلاحيين في عصر ڤيلهيلم لإصلاح المشهد المتسع المتغير في سياسات جمهورية ڤايمار".[١٠] وبينما دأب ريب على تذكيرنا أن المصلحين الاجتماعيين في العصر الڤيلهيلمي لم يشكلوا بدايات النازية، إلا أنه لم يبرؤهم بالكلية، حيث يؤكد على:

> "بل إنه كما يشير جريڤن آشوف وجيرهارد أن حماسة الحركات النسوية والحركات الإصلاحية الأخرى في العصر الڤيلهيلمي بالصحة العرقية وسياسات السكان مرتبطة بالتوحش واللاإنسانية في الهولوكوست. ذلك لأنهم أضفوا المشروعية على مثل هذه المفاهيم. مشروعية لم يكونوا ليستمتعوا بها في دوائر عديدة، مشروعية تتجاوز الظرف التاريخي العابر الذي استدعى هذه الحماسة".[١١]

لم يقتصر الغموض الأخلاقي والسياسي على اليوجينيين وحركات الإصلاح الاجتماعي، بل إنه امتد إلى علماء الأنثروبولوجيا الألمان، والذين يعدون مكونًا حاسمًا في دراستنا، نظرًا لشرعنتهم للعلوم العنصرية على أساس من الداروينية. في دراسته لعلماء الأنثروبيولوجيا الألمان في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أوضح أندرو زيمرمان Andrew Zimmerman "الإمكانيات المتكافئة والمتناقضة" الملازمة لهذا النظام. بالإضافة لذلك

أقر ان الأنثروبولوجيا الألمانية: "تقدم سلسة من الممارسات، والنظريات والأيدولوجيات التي تعد من أخطر الشرور في التاريخ الإنساني؛ ألا وهي الاستعمارية والإبادة الجماعية النازية".[١٢] ليس من المهم كم كان الطريق بين الداروينية والنازية ملتويًا، فقد مهدت الداروينية واليوجينية الطريق لأيدولوجيات النازية، خاصة لتركيز النازية على التوسع والصراع العنصري والتصفية العرقية.

تتوقف نظرة المرء إلى استقامة أو التواء الطريق بين الداروينية والنازية على الزوايا التي ينظر للنازية منها، فالداروينية الاجتماعية تعتبر أحد مكونات الفكر النازي —حتى ولو كانت المكون المركزي— فقط. ولو ركز المرء على معاداة السامية، والتي تشكل بالطبع جانبًا مهمًا من آراء هتلر، فحينها لن يعود هناك أية رابط بين الداروينية والنازية.[١٣] بعض اليهود كانوا داروينيين شرسين، وبعضهم كان يوجينيًا، وسيظهر القليل منهم على صفحات هذا العمل.[١٤] وهناك جوانب أخرى من رؤية هتلر للعالم وممارساته السياسية لا علاقة لها بالداروينية؛ مثل الديكتاتورية على سبيل المثال. ولكن إذا ركزنا على مسألة الأخلاق، وقيمة حياة النفس البشرية، والمسألة العرقية —كما سأفعل خلال الصفحات المقبلة— سيظهر الرابط التاريخي جليًا. بعد عرضها الشامل للجذور الداروينية لليوجينية، كانت شيلا فيث ڤايس Sheila Faith Weis محقة حين قالت:

> "أخيرًا، بإمكان المرء أن يضيف، أن تصنيف الناس إلى "ذوي قيمة" و"عديمي القيمة"، واعتبارهم مجرد متغيرات راضخة للتعديل للوصول إلى "أعلى النتائج"، تمامًا كما فعل شالماير وكل اليوجينيين الألمان، لم يكن سوى اعتناق وجهة نظر أدت بعد مرورها بكثير من الأدوار والمراحل إلى ظهور العمالة المستعبدة ومعسكرات الموت في أوشڤيتز".[١٥]

دعونا نستكشف إذن باختصار الروابط بين الداروينية وهتلر قبل الانتقال إلى موضوع آخر.

أولًا، من المهم أن نفهم أن آراء هتلر عن القيم والأخلاق، بالرغم من أن بعض مواقفه تبدو محافظة أو رجعية، لكنها ليست كذلك بأي حال من الأحوال. على سبيل المثال؛ يركز بعض العلماء على أن رفض هتلر للنسوية والإجهاض توضح رجعية أفكار هتلر.[١٦] ولكن، كما بين مايكل بيرلي Michael Burleigh وڤولفجانج ڤيبرمان Wolfganag Wippermann في كتابيهما (ألمانيا: الدولة العرقية ١٩٣٣ – ١٩٤٥) أن الأيدولوجية النازية لا يمكن تصنيفها بتلك البساطة، لأن هتلر عارض النسوية والإجهاض بخلفية تختلف تمامًا عن خلفية المحافظين التقليديين. فقد اعتقد أن النسوية والإجهاض أمور مؤذية بيولوجيا، وبالتالي معارضة للعلم (وهو كان ضد إجهاض "الآريين" فقط). رغم توافق بعض سياساته مع المحافظين، لكنه اعتبر نفسه ثائرًا سيجلب التقدم والتطور لألمانيا والعالم.[١٧] كان بيرلي محقا عندما ذكر أن النازية كانت "محاولة ديستوبية لصناعة رجال ونساء جدد عبر محو أو تغيير قيمهم الأخلاقية الموروثة إلى قيم مستقاة من نسخة محدثة وعلمية من قيم ما قبل اليهودية والمسيحية. بعبارة أخرى، هي نقل للحضارات البدائية والقديمة عبر منظور داروين ونيتشه".[١٨]

يمكن تلخيص رأي هتلر في الأخلاق في الاقتباس التالي: "المثالية الأخلاقية تطالبنا أن نضع حياتنا كلها في خدمتها، بينما المثالية العرقية هي التي تمكننا أن نعيش وفق قواعده. في كل لحظة عمل أو لحظة فراغ يجب أن نسأل أنفسنا؟ هل يخدم هذا عرقنا؟ ثم نتخذ قرارنا بناء على ذلك". لم يكتب هتلر أو أحد حاشيته هذه الكلمات. كتبها بيولوجي دارويني شهير؛ فريتس لينتس Fritz Lenz المتخصص في الجينات، والذي أصبح أستاذ اليوجينيا في جامعة ميونخ في العام ١٩٢٣.كتب لينتس هذه الكلمات في مقاله (العرق كمبدأ قيمي: نحو تحديد منظومة الأخلاق)، وفي العام ١٩٣٣ كان لينتس يفخر أن هذا المقال "يحتوي على

جميع الخصائص الأساسية لرؤية الحزب النازي للعالم".[١٩]

أحد المكونات الأساسية للرؤية النازية للعالم هو عدم المساواة الإنسانية، حيث تختلف قيمة البشر بناء على سماتهم البيولوجية. وفي كتابه (**كفاحي Mein Kampf**) عبر هتلر عن هذه الأفكار مرارًا، عندما بيّن رؤيته للعالم:

> "لا أؤمن مطلقًا بالمساواة بين الأجناس، بل أدرك اختلافاتهم بجانب قيمتهم الأعلى أو الأقل، وعليه تُلزِم هذه المعرفة، وفقا للإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون، مساعدة الأفضل والأقوى لينتصر، واستسلام الأسوأ والأضعف. وبذلك أتبنى من حيث المبدأ قانون الطبيعة الأرستقراطي وأؤمن بصحة هذا القانون على الجميع حتى آخر كائن. فلا أعترف بالاختلاف في قيمة الأعراق فحسب، بل أيضًا الاختلاف في قيمة كل فرد من أفرادهم... لكن لا يمكن مطلقًا الموافقة على صحة فكرة أخلاقية، إذا كانت هذه الفكرة تشكل خطرًا على الحياة العرقية لحاملي الأخلاق الأعلى".[٢٠]

سأشرح هذه العبارة بالتفصيل لاحقًا (في الفصل الحادي عشر)، ولكنني سأكتفي الآن بالقول إن هتلر كان يؤمن أن هؤلاء الأفراد غير المتساوين بيولوجيًا، مثل كل الكائنات، محبوسين في صراع داروينيي أبدي لا فكاك منه للبقاء، حيث ينتصر القوى ويبقى، وينهزم الأضعف ويتلاشى.

انتشرت في خطابات هتلر المصطلحات والتعابير الداروينية، وعلى حد علمي لم يشكك أحد فيما أكده علماء كثيرون عن كون هتلر داروينيا اجتماعيا. فهذا أوضح من أن يمكن نفيه.[٢١] ولأجل إنقاذ العلم الداروينيي من التلويث النازي، يؤكد بعض المؤرخين أن آراء هتلر كانت غير علمية أو شاذة، أو يشيرون إلى نظرته للداروينية كنظرة فظة ومبتذلة. على سبيل المثال، كتبت بيرجيت هامان Brigitte Hamnn في كتابها الرائع (ڤيينا هتلر Hitler's

Vienna): "معظم النظريات المفضلة لدى هتلر تشترك في أنها لا تتوافق مع العلوم الأكاديمية، ولكنها كانت نتيجة المعالجة الذاتية لأفكار علماء بعينهم يزدرون العلماء المعتبرين لأقصى درجة، والذين كانوا يرفضونهم، ويبدو أن سبب ذلك منطقي".[٢٢] على النقيض، أظهرت دراسات حديثة عن العلوم النازية (خاصة تلك المتعلقة بالبيولوجيا والعلوم الطبية واليوجينيا) أن التيار السائد من العلماء والأساتذة والأطباء —بما فيهم أولئك المحسوبون على اليسار السياسي— يعتنقون آراء عن الداروينية واليوجينية شبيهة بأفكار هتلر.[٢٣] لم يكن فريتس لينتس العالم الوحيد الذي لاحظ انسجامًا بين أفكاره وبين النازية. حيث ستبين دراستي أن الكثير من أفكار هتلر مستقاة في الأساس من علماء وأساتذة معتبرين كانوا يواجهون تأثير الداروينية على منظومة الأخلاق والمجتمع (رغم تشرب هتلر لتأثيرات الداروينية لاحقًا عن طريق وسيط ثان أو ثالث). لا ينسحب الكلام هنا على العلماء والأطباء البارزين وحدهم بل يتعداهم إلى أساتذة الفلسفة والاقتصاد والجغرافيا.

حتى آراء هتلر الداروينية الاجتماعية عن التطرف العرقي كانت نفس آراء علماء ومفكرين اجتماعيين داروينيين بارزين، ولكن غالبا بدون الإشارة لليهود. كما أوضح الكثير من البيولوجيين الداروينيين والمنظرين الاجتماعيين أن التمييز العنصري لا يمكن الفكاك منه، كما أنه مفيد أيضًا، لأنه يجلب التقدم التطوري للنوع بشكل كامل.[٢٤] أوسكار بيشل Oscar Peschel الداروينيي البارز المختص في علم الأعراق والمحرر في دورية (داس آوسلاند Das Ausland)، أوضح في ١٨٧٠ —قبل أن ينشر داروين (أصل الإنسان)، بل وقبل ميلاد هتلر نفسه— أن الأخلاق لا يمكن أن تناقض العملية الطبيعية الإبادة العرقية، وكتب:

" كل ما نعتبره حقًا للأفراد يجب أن يخلي مكانه لصالح المتطلبات العاجلة للمجتمع الإنساني، إن لم تكن متوافقة مع هذه المتطلبات. على هذا يجب أن نطالع انقراض الذئاب التسمانية كقّدر جيولوجي أحفوري؛ حيث حل النوع الأقوى مكان النوع

الأضعف. هذا الانقراض محزن في ذاته، ولكن المحزن أكثر هو أن النظام الطبيعي للعالم يسحق الأخلاق تحته في كل مواجهة بينهما".[٢٥]

بيشل يريد منا أن نؤمن أن الطبيعة تتفوق على الأخلاق كل مرة، حيث يعلمنا العلم أن نستسلم للحقيقة القائلة بأنه لا توجد حقوق للإنسان في هذا العالم، ولا حتى الحق في الحياة. لا عجب إذن أن سيدچويك كان قلقًا.

سأناقش هتلر بشكل أوسع في الفصل الحادي عشر، حيث سأبين كيف اعتمد هتلر على رصيد سخي من الأفكار الداروينية لتأسيس فلسفته العنصرية الخاصة. ما كان يهمني حقا في هذا العمل ليس هتلر بل الداروينية، وبالأخص تأثيرات الداروينية على منظومة الأخلاق، وكذا على فهمنا للحياة والموت.

عند استخدامي لمصطلح الداروينية في هذا البحث فإني أعني به التطور عبر الانتقاء الطبيعي كما قدمه داروين في كتابه أصل الأنواع. بينما كان مصطلح الداروينية في أواخر القرن التاسع عشر يستخدم كثيرًا بطريقة فضفاضة. أحيانًا يشير إلى فكرة التطور بشكل عام، وأحيانًا يشير إلى نظرية الانتقاء الطبيعي (كما أستخدمها هنا)، وفي أحيان أخرى يشير إلى الرؤية الطبيعانية للعالم التي يوجد التطور البيولوجي في صلبها.

ظهرت الخلافات بين هؤلاء الذين اتفقوا على صلاحية فكرة التطور في أواخر القرن التاسع عشر حول آليتها. الكثير من البيولوجيين تبنوا فكرة لامارك —والتي لم تعد محل ثقة حاليًا— التي تقول أن الكائن يمرر السمات المكتسبة لنسله. على الرغم من أن تفسير لامارك لم يكن مناقضًا لفكرة داروين عن الانتقاء الطبيعي (حتى داروين نفسه قبل درجة من اللاماركية)، معظم البيولوجيين الألمان في القرن التاسع عشر تبعوا آراء هيكل التي قادت إلى المزج بين الداروينية واللاماركية.

أود أيضًا أن أوضح من البداية أن هذه الدراسة تاريخية. عندما أربط بين داروين، والداروينيين الألمان، واليوجينيين، والمنظرين العنصريين، والعسكريين فإن هذا لا يعني إقراري بمنطقهم، سأترك القارئ ليقرر منطقية حالتهم. كما أنى لا أحمل الادعاء السخيف القائل أن الداروينية تقود حتمًا إلى النازية بطريق مباشر أو غير مباشر. وبتعبير فلسفي؛ الداروينية كانت سببًا مهمًا لظهور الأيدولوجية النازية، ولكنها لم تكن السبب الوحيد. ولكن أيًا كانت منطقية أو لا منطقية الرابط بين الداروينية والنازية، تاريخيًا؛ الرابط بينهما لن يزول بمجرد تمني زواله.

ثانيًا؛ أود أن أؤكد أني اقتصرت في النقاش عن تأثير الداروينية على الجانب الأخلاقي والفكر الاجتماعي، خاصة الأفكار التي يطلق عليها الآن أخلاقيات الطب الحيوي. سأركز بشكل أساسي على تأثير الداروينية على كل من اليوجينية، والقتل الرحيم، والنظرية العرقية، والعسكرية في ألمانيا. وبينما تعد هذه المبادئ أساسية في الفكر النازي، إلا أن هذا لا يعني أن ننعت حاملي هذه الأفكار بأنهم النازيون الأوائل، لأن النازية انسابت من أفكارهم. الكثير من الرموز التي سأتناولها كانت ليبرالية بطريقة أو بأخرى، بعضهم كان اشتراكيا، والبعض كان سلميًا والبعض كان يهوديًا. بالإضافة لذلك عندما نحرك الضوء بعيدًا عن الأيدولوجيات السياسية ونركز على الأخلاق وعلى قيمة الحياة وعلى الفكر العنصري، سنجد عادة أن الداروينيين الذين كانوا أقطابًا متفرقة سياسيًا، لديهم الكثير من نقاط الاتفاق أكثر مما كنا نظن عند أول نظرة.

هناك سبب آخر يجعلنا لا نعتبر تقليل الداروينية من قيمة الحياة كمقدمات للنازية، وهو أن أفكارًا شبيهة بها تداولت في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الدول الديموقراطية. وقد أكد كل من إيان داوبيجن Ian Dowbiggen ونيك كيمب Nick Kemp في دراستهما الجيدة عن تاريخ حركة القتل الرحيم في الولايات المتحدة وبريطانيا على الدور المحوري الذي قامت به الداروينية في وضع الأساسيات ورسم الأفكار الداعمة لحركة القتل

الرحيم. يقول داوبيجن: "كان المنعطف الأساسي في بدايات حركة القتل الرحيم هو وصول الداروينية إلى الولايات المتحدة".[٢٦] ويدعم كيمب هذا الرأي بقوة ويقول: "إذا كان علينا أن نقلق من وصم داروين بالرجل الذي قادنا لعصر علماني، يجب أن نكون أيضًا حذرين من أن نبخس أهمية الفكر التطوري عند بحثنا عن قدسية قيمة الحياة البشرية".[٢٧]

أظهرت العديد من الدراسات عن الحركة اليوجينية في الولايات المتحدة وأوروبا وفي أماكن أخرى من العالم أهمية الداروينية في أن تكون وسيطًا للتحول نحو اليوجينية وغيرها من الأفكار المتعلقة بما فيها الحتمية البيولوجية، واللامساواتية، والعنصرية العلمية، والتقليل من قيمة حياة الإنسان.[٢٨] هذه الأفكار عبر عنها ماديسون جرانت Madison Grant، رئيس جمعية علوم الحيوان في نيويورك؛ في كتابه (زوال الجنس الأعظم The Passing of the Great Race) ١٩١٦ وتبدو للأسف قريبة من الأسلوب النازي في التفكير (وقد اقتنى هتلر الترجمة الألمانية للكتاب).

كتب جرانت: "النظرة الخاطئة لما نعتقد أنه قانون إلهي أو اعتقاد عاطفي بقدسية حياة الإنسان هي السبب في منع التخلص من الأطفال الفاسدين وتعقيم البالغين الذين لا قيمة لهم في المجتمع. قوانين الطبيعة تتطلب إبادة العناصر غير الملائمة، وليس للحياة البشرية قيمة إن لم تكن ذات نفع للمجتمع أو للعرق".[٢٩] كما أوضح شتيفان كول Stefan Kühl بشكل صريح الروابط العديدة بين الحركة اليوجينية الأمريكية والبرنامج النازي اليوجيني.[٣٠] إذن لم يكن بخس قيمة الحياة الإنسانية مفهوم قاصر على ألمانيا، بل إنه كان السبب في مآس بشرية خارج ألمانيا مثل معسكرات التعقيم الإجباري في الولايات المتحدة والدول الاسكندنافية. ولكنها لم تصل لنتائج كارثية كما فعلت في ألمانيا، ألمانيا وحدها هي التي كان يحكمها ديكتاتور يحمل أجندة راديكالية يناضل من أجل تحقيقها تحت غطاء الحرب.

كان لنظرية التطور بوجه عام والداروينية بوجه خاص أثر هائل في الفكر الألماني. كتب

داروين لـ(ڤيلهيلم براير Wilhelm Preyer) في عام ١٨٦٨: "**الدعم الذي أتلقاه من ألمانيا** هو الأصل الذي أبني عليه أملي بأن أفكارنا ستسود في يوم من الأيام".[٣١] وبالفعل، في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر بدأ الكثير من صغار العلماء الألمان في تشجيع الداروينية، بينما كان البيولوجيين البارزين وغيرهم من العلماء —مثل اللاهوتي الشهير داڤيد فريديريش شتراوس David Friedrich Strauss وفيلسوف الكانتية الجديدة فريديريش ألبرت لانج Friedrich Albert Lang— يلجؤون للداروينية لدعم نظرياتهم السياسية والاجتماعية.[٣٢] وبحلول العقد التاسع من القرن التاسع عشر حاول الكثير من البيولوجيين والمنظرين الاجتماعيين تطبيق الصراع الداروينى للبقاء على المجتمعات الإنسانية، وبدأ (لودڤيش ڤولتمان Ludwig Wolttmann) —الذي انتقد هذه المحاولات في أحد مراحل حياته— في الإشارة لهذه المحاولات باعتبارهم جميعًا داروينيين اجتماعيين.[٣٣]

لا يقاس تأثير الداروينية فقط بتدفق الكتب والمقالات التي تناقش التطبيقات الاجتماعية والاخلاقية للداروينية في أواخر القرن التاسع عشر في ألمانيا، والنمسا وسويسرا وحدهم (ولذا عندما أشير بشكل عام إلى الدول المتحدثة بالألمانية أذكر ألمانيا وحدها اختصارًا)، ولكن أيضًا نجده عادة في شهادات السيرة الذاتية. (ريتشارد جولدشميت Richard GoldSchmidt) أحد علماء الوراثة البارزين في القرن العشرين، أظهر تعاطفه مع أدبيات داروين في شبابه. في عمر السادسة عشر ذكر أنه قرأ كتاب (التاريخ الطبيعي للخلق Natural History of Creation) لـ(إرنست هيكل Ernst Haekel):

> "بعين متقدة وروح وثابة. بدا أن كل مشاكل الكون تحل ببساطة وباقتناع، كان هناك مفتاحا واحدًا للإجابة عن كل الأسئلة التي تقلق العقل الصغير. نظرية التطور كانت الحل لكل شيء، ويمكنها أن تأخذ مكان كل الاعتقادات التي نبذتها. ليس هناك خلق ولا خالق، ولا جنة ولا نار، فقط التطور وذلك القانون الرائع المسمى بنظرية

التلخيص، التي تثبت نظرية التطور لأقوى المؤمنين بالخلق. كنت منبهرًا عندما تواصلت مع آخرين بشأن معلوماتي الجديدة، كان هذا في فناء المدرسة، وفي الرحلات المدرسية وبين الأصدقاء. أتذكر مشهدًا حيًا خلال نزهة مدرسية عندما وقفت محاطًا بمجموعة من تلاميذ المدرسة أشرح لهم إنجيل الداروينية كما كان يراه هيكل".[٣٤]

يقول جولدشميت أن تجربته في اعتناق الرؤية الداروينية للعالم (على الطريقة الهيكلية) كانت نموذجية بالنسبة لصغار المتعلمين في زمنه، ويؤكد على ذلك شهادات غزيره من معاصريه. ففي العام ١٩٢١ قال أخصائي الفسيولوجيا (ماكس فيرڤون Max Verworn): "يمكن للمرء أن يقول دون مبالغة، أنه لا يوجد عالم كان له تأثير كبير على تطوير رؤيتنا المعاصرة للعالم مثلما فعل هيكل".[٣٥]

إرنست هيكل، الداروينى الأشهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تبنى بمنتهى الحماسة نظرية داروين في الانتقاء الطبيعي وطبق الصراع من أجل البقاء على البشر في كتابات عديدة.[٣٦] كان يؤمن أن أهم جوانب الداروينية هو انحدار الإنسان من أسلاف حيوانية، والذي سوف "يجلب ثورة كاملة في رؤية البشر للعالم بأكمله". نظرية تطور الإنسان "ستنفذ بعمق أكثر من أي تقدم آخر في العقل البشري" وستساعد على دمج كل فروع العلوم الأخرى.[٣٧] هنأ هيكل داروين في عيد ميلاده السبعين على أنه "أوضح للإنسان مكانه الحقيقي في الطبيعة، وأطاح بأسطورة مركزية الإنسان"؛ الفكرة التي تقول أن الإنسان هو مركز الكون والتاريخ.[٣٨] وقد دأب هيكل في كتاباته على انتقاد "أسطورة مركزية الإنسان" كفكرة دينية لم تعد مقبولة في ضوء العلم الداروينى.[٣٩]

ويتفق معه في ذلك الطبيب المادي الشهير (لودڤيش بوشنر Ludwig Buchner)، وهو أحد أهم وأشهر مروجي نظرية الداروينية في ألمانيا. وكتب إلى الأنثروبولوجي (هيرمان شافهاوزين Hermann Schaffhausen) الذي اكتشف حفرية إنسان نياندرتال:

"بظهور المفهوم الجديد للحياة (ألا وهو الداروينية)، أعتقد أنه سيظهر معه أحد أعظم التحولات والتطورات في المعارف البشرية التي مرت على الإنسان... وفي نفس الوقت ستصبح فلسفتنا واضحة وبسيطة بشكل لم يكن متوقعًا".[٤٠]

وينظر هيكل وبوشنر والكثير من الشباب والفتيات الذين تأثروا بهما إلى الداروينية كأكثر من مجرد نظرية بيولوجية. بالنسبة لهم تشكل الداروينية المكون الأساسي لاتجاه فكري جديد عن عالم كان محبوسًا من قبل في أفكار المسيحية التقليدية أو أي دين أو فلسفة ثنائية. ويتذكر أستاذ الطب الاجتماعي في جامعة برلين (ألفريد جروتيان Alfred Grotjahn) وأحد قادة رموز الحركة اليوجينية؛ يتذكر بشغف قراءته لكتاب بوشنر (المادة والقوة Force and Matter) في شبابه، والذي جرده من أي أثر لاعتقاد ديني. داروينية بوشنر المادية أثرت ليس فقط عليه وإنما على الكثير من معاصريه. يقول جروتيان —والمولود في ١٨٦٩—: "مثل مئات الآلاف من الشباب انسابت الداروينية إلى فكري ونظفته من مفاهيم الغيبيات في سن حاسم في تطور رأيي عن العالم وحررتني لاستقبال آراء إيجابية عن القيم الأخلاقية لهذا العالم".[٤١] اعترف الكثير من العلماء والمثقفون الألمان باعترافات شبيهة عند مواجهتهم بالكتابات الداروينية الشهيرة خاصة كتابات هيكل وبونشر التي كانت حاسمة في تشكيل رؤيتهم للعالم.[٤٢]

وبينما كان بوشنر يدافع عن المادية، التي يكون فيها العقل مجرد أداة للمادة، فإن هيكل سمى فلسفته الفلسفة الأحادية حيث كان يرى المادة والعقل متحدين بشكل معقد. عند هيكل حتى المواد غير الحية والكائنات وحيدة الخلية لها خصائص نفسية. وفي بعض الأحيان سمى هيكل مذهبه بوحدة الوجود التي اعتبرها مرادفًا للأحادية. كما اعترف أيضا أن وحدة الوجود تشبه الإلحاد تمامًا.[٤٣] على أية حال، سواء كان مادية أو أحادية أو وضعية، كانت الرؤية الداروينية للعالم التي طورها هؤلاء وغيرهم من الداروينيين البارزين —وبالتأكيد معظم

المفكرين الاجتماعيين الداروينيين– طبيعانية بالكامل؛ بمعنى أنها تناولت كل الظواهر بما فيها الدينية والأخلاقية والسلوك الإنساني كمنتج لمسببات طبيعية خاضعة لقوانين علمية.

ومهما اختلف هيكل وبوشنر وكارنيري وغيرهم من الداروينيين، إلا أنهم اتفقوا جميعًا على أن العمليات الطبيعية يمكنها تفسير كل جوانب المجتمع البشري وسلوك أفراده. بما في ذلك الأخلاق. رفضوا أية احتمالية لتدخل إلهي، وانهالوا سخرية على ثنائية الفكر والجسد، ورفضوا حرية الإرادة لصالح الجبرية المطلقة. بالنسبة لهم يمكن تفسير أي ظاهرة من ظواهر الكون بما فيها فكر الإنسان، والمجتمع والأخلاقيات عبر سبب وتأثير طبيعيين. وكنتيجة بديهية أصبحت العلوم الحكم على كل الحقائق، حتى الأخلاق والقيم لم تتمكنا من الهروب من أحكام وتصريحات العلوم.

معظم المفكرين الذين سأتناولهم في هذا الكتاب، إن لم يكن كلهم، اعتنقوا الرؤية الداروينية الطبيعانية للعالم تلك. بالطبع هناك الكثير من معاصريهم الذين قبلوا بصلاحية التطور للعمليات البيولوجية، ولكنهم رفضوا أي تأثير للداروينية على الدين والأخلاق والفكر الاجتماعي. وقد رسم علماء الدين الألمان خطًا فاصلًا صريحًا بين الله والطبيعة، بسبب سطوة الداروينية اللادينية وكتجاوب مع ظهور حركة نقد الإنجيل التي اعتنقوها، وبينما تنتمي الأخيرة للحقل العلمي، فإن الأولى تنتمي لعلم الأديان. جعل هذا العلوم الدينية حصينة ضد هجمة العلوم (ولكن أيضا أقل صلة بالعالم الحقيقي).[٤٤] معظم الفلاسفة الألمان والكثير من الاجتماعيين جابهوا هجمة العلوم على مجالهم بنفس الطريقة، متبنيين طريقة الفيلسوف (ڤيلهيلم ديلتاي Wilhelm Dielthey) في التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. رفض ديلتاي وأتباعه بقوة تطبيق الطرق العلمية على العلوم الاجتماعية. واتفقوا في ذلك مع (چورچ موور G. E. Moore) أن أية محاولة لاستخراج الأخلاق من الطبيعة ما هي إلا ارتكاب "للمغالطة الطبيعانية".[٤٥] ورغم هؤلاء المقاومون للرؤية الداروينية

الطبيعانية للعالم، إلا أن الكثيرون اعتنقوها بحماسة بالغة، خاصة العلماء والأطباء. في الواقع كان صوت الداعمين للداروينية الطبيعانية بين العلماء والأطباء أقوى بكثير من صوت المعارضين لها. إذن الداروينيون الطبيعانيون هم من حاولوا تطبيق التطور البيولوجي على الأخلاق، وليس هؤلاء الرافضون لإمكانية تطبيقها، وهم من سنتناولهم في عملنا هذا.

يبرز إذن السؤال: هل تعتبر المستجدات الثقافية التي أرسمها في هذا العمل نتيجة لشيء داروينيي بالأخص؟ أم هل ينبع من رؤية طبيعانية للعالم (سواء مادية أو أحادية)؟ هذا السؤال صعب؛ نظرًا للتعقيد الهائل في الروابط التاريخية بين الداروينية والطبيعانية. تشير بعض الدلائل التاريخية أن الداروينية قد لا تملك كل هذا التأثير على تنشيط الفلسفة الطبيعانية؛ ويمكن أن نعرض هذه الدلائل كالتالي: (١) ظهر نجم الطبيعانية قبل نشر داروين لنظريته (في ألمانيا نشر الماديون الثلاثة البارزين لودفيج بونشر، وكارل فوجت، وجاكوب مولشوت؛ معظم أعمالهم في العقد الخامس من القرن التاسع عشر). (٢) الأمر المتعلق بأن معظم معتنقي الداروينية اعتنقوها بعد أن كانوا معتنقين للطبيعانية. (٣) كثيرون اعتنقوا الداروينية دون اعتناقه الطبيعانية (مثل أتباع الكانتية الجديدة، ورجال الدين المسيحيين). بينما تشير هذه الدلائل إلى عدم ضرورة وجود علاقة بين الداروينية والمادية أو بينها وبين الأحادية (أحدهما يمكن أن تصلح بديلًا للآخر حال غيابه)، لكن ظهرت رغم هذا علاقات تاريخية قوية بين الداروينية والطبيعانية في أواخر القرن التاسع عشر في ألمانيا والتي قد تحتاج تفسيرًا. تلك العوامل التي تربط الاثنين تتضمن: (١) اعتنق معظم الماديين والأحاديين الداروينية بحماس واحتجوا أنها تدعم أفكارهم المادية أو الأحادية. (٢) ذكر كثيرون أن الداروينية كانت العامل الأساسي في تحولهم إلى المادية أو الأحادية. (٣) يحتج البيولوجيون الداروينيون والفلاسفة الأخلاقيون بصراحة بأن الداروينية تحوي فلسفة جبرية وبالتالي نظرة مادية للعقل.

تعكرت الصورة التاريخية أكثر بالحقيقة التي تقول أن بعض الأصوات المهمة في نشر الداروينية

قالوا بالادعاء المثير للجدل أنهم لم ينشروا النظرية البيولوجية فحسب بل سعوا لنشر الفكر الداروينى بوجه عام. ورغم اعتناقهم لآرائهم الخاصة قبل تبنيهم للداروينية، كان ملائمًا أن يدعوا تأييد الداروينية لنظرياتهم. كيف يمكن إذن أن نفهم هذا الارتباك بل والتضاد بين الداروينية والغيبيات؟ أقترح أن استقبال الداروينية في القرن التاسع عشر تأثر بانتشار النموذج الطبيعاني تمامًا كما أثر فيه. وإذا درسنا هذا بشكل واقعي يمكن أن أؤكد أنه بدون الداروينية لزاد انتشار المادية في أواخر القرن التاسع عشر، ولكنها ستكون أقل إقناعًا، وبالتالي كان سيقل عدد تابعيها مما حدث بالفعل.[٤٦]

وبرغم العلاقات القوية بين الداروينية والطبيعانية، مازال مناسبًا أن نعود للسؤال: أيهما أثرت مباشرة على الأخلاق ومنظومة القيم؛ الداروينية أم الطبيعانية؟ بعض الأفكار المتعلقة بالأخلاق التي أناقشها داروينية على وجه الخصوص، جالبة عناصر النظرية البيولوجيا كمسوغ... بعضهم لا يبدو أنه يحوي مضامين داروينية ولكنها تعتمد على مبادئ طبيعانية عامة. وبشكل مثير للانتباه يقول داروينيون كثر أن الداروينية تسوغ هذه المبادئ أيضًا، فالأمر ليس واضحًا بشكل قطعي.

ولأن الداروينية اخترقت الحركة اليوجينية في بداياتها، سنعرض في هذه الدراسة عددًا من اليوجينيين البارزين. فالأمر لا يتوقف على اعتناق كثير من الداروينيين البارزين لليوجينية، بل يمتد للقول بأن معظم اليوجينيين —في الواقع كل قادتهم المتقدمين— يعتبرون اليوجينية تطبيق واضح لمبادئ الداروينية على الأخلاق والمجتمع. (فرانسيس جالتون Francis Galton) —ابن عم داروين، ومؤسس اليوجينية الحديثة— طور فكرته خلال قراءته لكتاب أصل الأنواع، واعتمد زعماء اليوجينية الألمان أيضًا على مبادئ الداروينية بكثافة.[٤٧] (ألفريد بلوتس Alfred Poletz) مؤسس كل من الجمعية الألمانية للصحة العرقية والتي تعد أول هيئة يوجينية على مستوى العالم، كما أسس أحد النشرات العلمية المخصصة لليوجينية،

كان متأثرًا بشدة بهيكل في شابه. وأخبر صديقًا له في العام ١٨٩٢ أن أفكاره الأساسية عن اليوجينيا مستقاة من الداروينية، وكان دائم المدح لهيكل بصفته المؤثر الرئيسي على أفكاره.[٤٨] كما أخبر هيكل أن دوريته العلمية: ستقف إلى جانب الداروينية". الشيء الذي كان واضحًا من الإعلان الذي أرسله للمشتركين المحتملين، والذي كان مشبعًا بالمصطلحات الداروينية.[٤٩] علاوة على ذلك أحد المحررين معه كان (لودڤيش بلايت Ludwig Plate)، وهو عالم حيوان دارويني حل محل هيكل عند تقاعده في أستاذيته في جامعة يينا. ليس عجيبًا إذن أن يوظف بلوتس القائدين الداروينيين البارزين في ألمانيا هيكل وڤايتسمان كعضوي شرف في جمعية الصحة العرقية التي أسسها ١٩٠٥.

مسابقة جائزة كروب التي أقيمت لأول مرة ١٩٠٠ واستمرت حتى ١٩٠٣ ترسم بوضوح الرابط القوي بين الداروينية واليوجينية. رجل الصناعة (فريديريش كروب Fridrich Krupp) وأحد الهواة المتحمسين للطبيعانية موّل جائزة مجزية لأفضل إجابة بحجم كتاب عن السؤال: "ماذا نتعلم من مبادئ التطور البيولوجي فيما يتعلق بتطوير السياسة الداخلية وتشريعات الدول؟"[٥٠] ساهم (هاينريش إيرنست تسايجلر Heinrich Ernst Zeigler) مع هيكل في رعاية هذه المسابقة، وهو عالم حيوان عمل معه في جامعة يينا، وكان واحدًا من المحكمين. الحصول على تلك الجائزة والتي تبلغ عشرة آلاف والتي كانت تشكل مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت كانت من نصيب (ڤيلهيلم شالماير Wilhelm Schallmayer) عن كتابه الوراثة والانتقاء والذي كتبه في العام ١٩٠٣، ويعد هذا الكتاب توسعة لكتيبه اليوجيني السابق: تهديد الانحطاط الجسماني للشعوب المتحضرة (١٨٩١). اعتمدت يوجينية شالماير بقوة على النظرية الداروينية والتي سماها الاكتشاف الأعظم في القرن التاسع عشر.[٥١] وقد اعترف في خطاب كتبه ليوجينيٍّ آخر أن الرابط بين اليوجينية والداروينية شديد الرسوخ.[٥٢]

لم يكن اليوجينيون مجرد داروينيين متحمسين، بل كان الكثير منهم مهتمًا بالموضوعات الأخلاقية. في الواقع كانت اليوجينية تحاول تطوير (أخلاقًا علمية) تبنى ظاهريًا على النظرية الداروينية. كتب شالماير في مقدمة كتابه الفائز بالجائزة: "لهذا الرأي (الداروينية) تأثير قوي على الأخلاقيات. هو لا ينتج فقط آراء جديدة حول أصل الأوامر الأخلاقية وتطورها وبالتالي بداية جديدة لهم، بل إنه يقود إلى المطالبة بتغيير جزئي في الآراء الأخلاقية السائدة في الوقت الحاضر".[٥٣] وقد وافق يوجينييون كثيرون على ذلك كما سنرى لاحقًا.

ما هي الطريقة التي أثرت بها الداروينية على الفكر الأخلاقي؟ أولًا؛ أظهر داروين الفلسفات المادية والواقعية بصورة أكثر احترامًا عبر تقديم تفسيرات غير دينية للأخلاق. قبل داروين رفضت بعض النظريات الأخلاقية —أو قل تجاهلت— الأصل الديني للأخلاق (مثل آراء بانثام النفعية)، ولكن لم يستطع أحدهم تفسير وجود سجية أخلاقية أو ضمير لدى الإنسان، ولا حتى تفسير لماذا يتصرف البشر بإيثار. بعضهم افترض وجود الفضيلة، ولكن لم يستطع تقديم تفسير لأصلها. كانت على سبيل المثال توقع وجود الفضائل وبناء عليها استنتج وجود الإله، والفجور والإرادة الحرة، ولكن الداروينية قوضت فرضية كانت. ثانيًا ساهمت الداروينية في ظهور النظرة النسبية للأخلاق برفضها لأبدية الأخلاق وتجاوزها للحدود.

معظم الداروينيون يفسرون الأخلاق باعتبارها منتجًا للطبيعة، قابل للتطور الدائم مثل كل مظاهر الطبيعة. لم تنقش الأخلاق على ألواح الحجارة، ولكنها خطت على رمال الوقت دائم التغير. ثالثًا؛ أعطت الداروينية دفعة للرأي القائل بأن الفضائل عند الإنسان فطرية أو على الأقل مبنية على جانب فطري وليست منحة إلهية (كما تقول المسيحية) أو عملية منطقية (كما يقول كانت). رابعًا؛ آثّر كل من الانتقاء الطبيعي وصراع البقاء على نظرة الناس إلى الأخلاق. في دراسته عن الداروينية الاجتماعية قال (هانس يوأخيم كوخ Hannsjoachim Koch): "إن مفهوم الانتقاء الطبيعي له تأثير كبير على معاصري

الداروينية أكبر من تأثير فكرة التطور؛ فالانتقاء الطبيعي... يستدعي السؤال عن صلاحية المبادئ الأخلاقية الحالية في جميع جوانب الحياة، سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية".[٥٤] أخيرًا؛ مفهوم الداروينية المختلف عن طبيعة الإنسان وقيمة الحياة، والذي يحمل أثرًا أخلاقيًا (وسياسيًا واجتماعيًا) بعيد المدى. لنبحث إذن هذه النقطة الأخيرة بشكل أعمق؛ ما الذي يوجد في الداروينية ويجعلها تنتج تغييرًا كبيرًا على النظرة لقيمة الحياة؟

أولًا "تتضمن الداروينية فكرة أن الإنسان ظهر من الحيوان، وقد فسر كثيرون هذا بأن الإنسان ليس له تلك المكانة الخاصة التي تشير إليها الثقافة اليهودية والمسيحية. فبدلًا من أن يكون مخلوقًا على صورة الرب وأن يكون كريم الأصل، فقد تطور الإنسان عن قرد. ولتفسير تطور العقل والسمات الإنسانية عن الحيوان، رفض داروين وكذا معظم الداروينيين فكرة أن الروح أبدية غير مادية (وهي الفكرة المركزية في كل من الثقافة اليهودية والمسيحية والتي تؤصل لقدسية الحياة).[٥٥]

ثانيًا: أكدت الداروينية على التنوع داخل الأنواع، والذي يوحي بعدم التساوي البيولوجي. وبتطبيق هذا على الإنسان استخدم كثير من البيولوجيين والأنثروبولوجيين والمفكرين الاجتماعيين الداروينية لتبرير عدم التساوي الاجتماعي والعنصري.

ثالثًا: انبنى الانتقاء الطبيعي وصراع البقاء في نظرية داروين على مبدأ مالتوس Malthus السكاني، كما أشار إلى أن الموت بدون نسل طبيعي في الحياة العضوية، ولهذا فموت عدد من الكائنات (غير الصالحة) مفيد وحاضن للتقدم. كانت العادة أن نظرة الأوروبيين للموت شر يجب التغلب عليه، وليس قوة نافعة. ولكن داروين رأى بعض الخير في ذلك الشر. في خاتمة كتابه (أصل الأنواع)، كتب داروين: "لذا، من حرب الطبيعة، من المجاعة والموت، نستطيع أن نتصور أعظم هدف؛ ألا وهو إنتاج حيوانات من رتبة أعلى تتبع هذا الموت مباشرة".[٥٦] لم تكن نظرية داروين عن الانتقاء الطبيعي فحسب، بل كانت تتعلق بالحياة

والموت.

نظرية داروين إذن تطرح عدة مواضيع أساسية تتقاطع مع التعاليم الدينية التقليدية، بما فيها أصل الأخلاق، وتكوين منظومة القيم، ومعنى الحياة والموت. ركزت كثير من الدراسات الحديثة عن استقبال رجال الدين لنظرية داروين على مسألة التكيف، حيث كان كثير من رجال الدين المسيحيين والرهبان بما فيهم أصحاب الاتجاه المحافظ على استعداد لاعتناق صورة من صور نظرية التطور.[٥٧] ولكن دراستي تلقي الضوء على لماذا كان النقاش حول الداروينية لاذعًا في بعض الأحيان. كما تذكرنا أنه بغض النظر عن تقبل بعض الرموز الدينية البارزة لنظرية التطور، فإن رموزًا داروينية بارزة لم تتقبل الدين. الكثير منهم لم يكتفي باستخدام الداروينية لمحاربة الفهم التقليدي المسيحي عن المعجزات والغيبيات، بل إنهم قوضوا الكثير من القيم المسيحية التي كانت قيمتها محصنة في الثقافة الأوروبية. وكما لاحظ (ديتليف بويكارت Detlev Peukert) أنه بالنسبة لكثير من المتعلمين الألمان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين **استبدلوا الدين بالعلم " كمصدر ميثولوجي خالق للمعاني"**.[٥٨]

في الفصول **الثلاثة الأولى** من الكتاب سندرس الطرق التي حاولت بها الداروينية تفسير الأخلاق ومنظومة القيم بوجه عام. **ثم سنعرج** على القيمة الأخلاقية الأكثر خصوصية؛ قيمة الحياة، لنبحث عن كيف استطاعت الداروينية أن تقلل من قيمة الحياة، خاصة حياة المعاقين وغير الأوربيين. أما **الفصل الأخير** سأوضح فيه كيف ساهمت تلك الأفكار في تطوير أيدولوجيات هتلر.

الجزء الأول
وضع أسس جديدة للأخلاق

الفصل الأول
أصل الأخلاق وصعود النسبيــة الأخلاقيــة

لخص **داروين** بعناية آرائه عن الأخلاق ومنظومة القيم في مذكراته الخاصة، وقال فيها أن الإنسان الذي لا يؤمن بالله ولا بحياة بعد الموت —مثله تمامًا— "يستطيع أن يتخذ قانونًا لحياته—كما أرى— فقط باتباع البواعث ونداءات الغرائز الأقوى أو التي يشعر أنها الأفضل".[١] ويعد هذا انحرافًا جذريًا عن الطرق التقليدية في تأصيل الأخلاق، حيث تعتمد المسيحية على الوحي الإلهي، وبنى كانت Kant وغيره من مفكري عصر النهضة الأخلاق بناء على عقلانية الإنسان، حتى أن فلاسفة الأخلاق البريطانيون اعتبروا الأخلاق والفضائل جزءًا ثابتًا لا يتغير من الطبيعة الإنسانية، أيًا كان أصلها. أكد الفيلسوف ديفيد هال David Hull في كتابه (ميتافيزيقيا التطور The Metaphysics of Evolution) على الطبيعة الثورية لنظرية داروين فيما يتعلق بالأخلاق قائلًا: "نظرًا لاعتماد الكثير من نظريات الأخلاق والآداب والنظريات السياسية على مفهوم أو أكثر عن الطبيعة البشرية، وضعت نظرية داروين كل هذه النظريات محل الاستفهام".[٢]

وحتى قبل كتابة داروين لمذكراته خشي الكثير من معارضي الداروينية من النتائج الأخلاقية للداروينية، وبالتأكيد لم تهدئ تعليقات داروين عن اتباع الغرائز مخاوفهم. بعد أن كتب داروين هذه العبارة في مذكراته التي تحدث فيها عن اتباع غرائزنا، أسرع ليضيف أن الغرائز الاجتماعية في الإنسان والمشاعر الأخلاقية تكون أقوى من النزعات الأنانية أو التلذذية. وقد ذكر داروين في كتابه (أصل الإنسان) أن الحس الأخلاقي للإنسان ينبع من النشاط المشترك للغرائز والعقلانية. وذكر أيضًا أن الغرائز الاجتماعية للإنسان والاختيار الجمعي يقودان بشكل طبيعي إلى القاعدة الذهبية: (عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك)[٣] دون الحاجة إلى تدخل غيبي. أكد داروين إذن لمعاصريه أنه ليس في نظريته ما يخشى منه لأنها تؤكد واحدًا من العقائد المركزية في الأخلاق اليهودية المسيحية.

ولكن لم يتفق كل داعمي داروين معه في الآثار الأخلاقية لنظريته وتناقش الداروينيون إن

كان داروين أسقط الآراء الأخلاقية التقليدية أم أنه عدلها أم أكدها.

رغم رفض البعض بحدة واحتقار لكل الأخلاق ومنظومة القيم التقليدية معتبرين إياها ذاتية وغير علمية، إلا أن الكثير اتخذ مقاربة متوسطة، مؤكدين على أهمية النزعات الإيثارية والحب الأخوي، بينما رفضوا معظم عقائد الأخلاقيات اليهودية والمسيحية. أمل هؤلاء الداروينيون المتأخرون في إنقاذ لب الأخلاق الدينية، بينما كانوا يتخلصون من المظاهر التي اعتبروها فخاخًا دينية زائدة لم تعد لها أهمية في عصر العلم المتحضر. الأهم من ذلك أنهم اعتبروا الأخلاق والآداب منتجًا من منتجات الطبيعة، وبالتالي سيكون لها علاقة بمراحل التطور وبالقدرة على حفظ الانواع؛ وعليه فإنهم يرفضون أي قانون أخلاقي ثابت.

لم يكن تفسير أصل الأخلاق موضوعًا جانبيًا تافهًا بالنسبة إلى داروين، ولكن كان موضوعًا محوريًا عليه أن يواجهه إن كان مقدرًا لنظريته للتطور أن تصبح مقبولة وذات وجاهة. الكثير من الناس عبر التاريخ بعد كل هذا يطالعون الأخلاق كمفهوم إنساني فريد، يرقى بالإنسان عاليًا فوق باقي الكائنات. احتاج داروين أولًا إلى إثبات أن الأخلاق ليست انفرادًا إنسانيًا. وثانيًا، احتاج إلى تفسير آلية عملها أو الميكانيكية التي تنتجها. وقبل نشر نظريته بزمن صارع داروين أصل النزعات الأخلاقية. كانت الداروينية: "تنوي تفسير المجتمع الإنساني"، كما قال جيمس موور James Moore وأدريان ديسموند Adrian Desmond، حيث دمج داروين في نظريته أفكارًا عن الاقتصاد والاجتماع من البداية.[٤] مذكراته الشهيرة باسم "M" التي نشرها عام ١٨٣٨ كانت مليئة بتأملات عن التطور البشري وتضمنت دلالات عدة عن الأخلاق.[٥]

وفي كتابه (أصل الإنسان) حاول داروين إثبات أن كل السمات الإنسانية —بما فيها السلوك الأخلاقي— تختلف في درجاتها وليس في نوعها، عن سمات باقي الكائنات الأخرى. وبيّن أن الكائنات الأخرى تعيش في مجتمعات وتتعاون، والغريزة الاجتماعية التي أنتجت هذا

التعاون غريزة وراثية. بينما في الإنسان تطورت الغرائز الاجتماعية أكثر منها في الأنواع الأخرى وانتظمت سويًا من خلال قدرات الإنسان الإدراكية الواسعة، لتنتج لنا ما نطلق عليه الأخلاق. وبالنسبة لداروين فإن آلية إنتاج هذا الفيض من الغرائز الاجتماعية كان الانتقاء الطبيعي عبر صراع البقاء. وستنتصر المجموعات ذات العناصر المتعاونة والمضحية على المجموعات ذات العناصر الأكثر أنانية إما بشكل مباشر عبر الحروب أو بشكل غير مباشر عبر الزيادة السكانية.[٦]

بجعله الغرائز الإنسانية قاعدة تنبثق منها الأخلاق، قدم تفسير داروين للتطور سببًا منطقيًا وعلميًا لتطور النزوات البشرية غير العقلانية. من وجهة النظر هذه تجسد نظريته العلمية العقلانية في عصر النهضة. قدم داروين نظريته كمنتج لمنهج باكون التجريبي، وقد ساعدت نظريته على إحداث نقلة نوعية في البيولوجيا تجاه النموذج الوضعي الواقعي.[٧] رغم ذلك ساعدت الداروينية أيضًا على تقويض العقلانية، خاصة في نطاق الأخلاق. الاحترام المتنامي للعلوم بوجه عام ولنظرية الداروينية بشكل خاص في أواخر القرن التاسع عشر ساعد على تعزيز الحتمية البيولوجية. فُسرت إذن سمات الإنسان العقلية والأخلاقية؛ وبالتالي سلوكه، بناء على سلوكه البيولوجي أو غرائزه وليس على عقلانية الإنسان. ولم ينفِ الداروينيون مطلقًا عقلانية الإنسان، ولكنهم بدأوا في تفسير السلوك الإنساني بمصطلحات داروينية، وأكدوا على أهمية الغرائز في تفسير السلوك الإنساني. وإن كانت التفسير الدارويني للسلوك الإنساني ممكنًا فإن البشر يجب أن يتشاركوا في سمات كثيرة مع الحيوانات، حيث أن الداروينية تقول أن العقلانية الإنسانية ليست المحرك الأساسي للسلوك الإنساني.[٨]

لم يكن داروين إطلاقًا هو أول من صور الأخلاق باعتبارها فطرية وغير عقلانية. في الواقع، تلقى داروين دعمًا كبيرًا من فلاسفة الأخلاق البريطانيين قبله. في القرن الثامن عشر قدم الفلاسفة نظريات عدة لتأصيل الأخلاق في المشاعر الإنسانية. على سبيل المثال شافتسبري

Shaftesbury الذي كان شخصية محورية في تطوير الحس الأخلاقي في الفلسفة، ساهم بشكل حاسم في ظهور العقلانية في النظرية الأخلاقية. كما آمن كثير من الشخصيات البارزة؛ مثل فرانسيس هاتشيسون Francis Hutcheson وجوزيف باتلر Joseph Butler أن المشاعر الأخلاقية غرسها الله في صدر الإنسان. بينما يمكن أن يتحدث آخرون؛ مثل ديڤيد هيوم David Hume عن فكرة الفلسفة الأخلاقية دون الإشارة لوجود أصل سماوي، ويبنيها ببساطة على الطبيعة الإنسانية. ولأن كثير من فلاسفة القرن الثامن عشر اعتبروا الطبيعة الإنسانية طبيعة جامدة، فقد اعتقد معظمهم أن المشاعر الأخلاقية مشاعر عامة ذائعة لا تتغير. كان داروين على دراية جيدة بالفلسفة الأخلاقية البريطانية.[٩] في العام ١٨٣٨ قرأ داروين كتاب چيمس ماكينتوش James Mackintoch عم زوجته؛ (بحث في تطور فلسفة الأخلاق)، ذكر ماكينتوش أن الأخلاق فطرية؛ لاعتمادها على دوافع أخلاقية، كما أنها عقلانية في الوقت نفسه.[١٠] ووافق داروين بشكل أو بآخر على مقاربة ماكينتوش، ولكنه رفض تمامًا وصف أخلاق الإنسان وطبيعته بالجمود.

انبثقت عن النظرية الداروينية محاولات عديدة لبناء نظام أخلاقي جديد يعتمد على فرضيات التطور. حتى قبل ظهور الداروينية حاول هربرت سبنسر Herbert Spencer بناء "منظومة أخلاقية علمية"، ولكنه في صياغته للأخلاق في العام ١٨٥١ كان لا يزال يستحضر وجود الإله كمصدر للأخلاق لدى الإنسان. ولكن بعد نشر داروين لنظريته تخلص سبنسر من وجود الإله وطور منظومة أخلاقية طبيعانية بالكامل. إلى جانب سبنسر كان المثقف الملحد ليزلي ستيفن Leslie Stephen أفضل المناصرين المعروفين لتطور الأخلاق في أواخر القرن التاسع عشر في بريطانيا، وبشكل أقل في الولايات المتحدة وغيرها كان هناك إشارات حاولت تشكيل النظريات الأخلاقية على قاعدة من التطور البيولوجي. بالطبع أفرزت هذه الإغارات على الداروينية انتقادات عديدة أيضًا، من بينها انتقادات واحد من علماء البيولوجيا الداروينيين البارزين؛ توماس هكسلي Thomas H. Huxley.[١١]

وجد التفسير الداروينى لأصل الأخلاق تربة خصبة في ألمانيا، ولكن الداروينيّون الألمان لم يتفقوا فيما بينهم على تأثيرات الداروينية على الوضع الأخلاقي الحالي. واعتبرها البعض نظرية ثورية، تطيح بالكامل بالنظام الأخلاقي التقليدي، خاصة الأخلاق المسيحية. آخرون، ومنهم داروين نفسه، حاولوا التركيز على انسجام الداروينية مع الأخلاق القائمة. ولكن الكثير اتخذ مقاربة مختلفة، حيث فرقوا بين بعض الظواهر الأخلاقية التقليدية التي تدعمها الداروينية وبعض الظواهر الأخرى التي تقوضها.[١٢]

تمثل هجمة هيكل على الفكر الأخلاقي هذه المقاربة المتوسطة؛ فقد نشأ هيكل —مثل داروين— في مناخ أخلاقي مسيحي تؤخذ فيه القاعدة الذهبية للأخلاق باعتبارها بدهية. حتى أنه قبل اعتناقه للداروينية كتب لمخطوبته أن القاعدة التي تحكم حياته هي: "عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك به".[١٣] وفي العام ١٨٧٧ —أي بعد نشر داروين لرأيه في الأخلاق الإنسانية في كتابه (نشأة الإنسان)— قال هيكل رأيًا عن الأخلاق مطابقًا لرأي داروين. قال إن كل إنسان مفطور على حب الآخرين، مفطور على التخلي عن الأنا مقابل مصلحة المجموعة. وتمامًا مثل داروين أطلق على هذا الحافز التعاوني "الغريزة الاجتماعية". مهمة نظرية التطور — من وجهة نظر هيكل— ليست: "إيجاد مبادئ أخلاقية جديدة، ولكن العودة بالأوامر والتعليمات الواجبة والمفروضة إلى طبيعتها الطبيعية العلمية". فالعلم سيقدم أصولًا للأخلاق أدق من التي قدمها الدين.[١٤]

إلى حد بعيد يبدو هذا متوافقًا مع الأخلاقيات المسيحية، وكان هيكل سيستمر في التركيز على القاعدة الذهبية كمكون أساسي لمنظومة أخلاقه الأحادية، ولكن عندما بدأ هيكل في الكتابة بتركيز عن الأخلاق—التي بدأها في العام ١٨٩٢ بكتابه " الأحادية كرابط بين العلم والدين"—أصبح موقفه تجاه الأخلاق المسيحية أكثر غموضًا. من ناحية كان يمدح الأخلاق المسيحية باعتبارها النموذج الأمثل للأخلاق رغم انتشارها (وقد خفف من وطأة تلك

الملاحظة عبر قوله أن القاعدة الذهبية موجودة قبل المسيحية، كما أنها موجودة في البوذية). كما قال أن نظريته الأحادية للأخلاق "لا تتعارض مع الجوانب الحسنة القيمة في الأخلاق المسيحية". توحي هذه العبارة—كما تؤكد مؤلفاته الأخرى—أنه لا يمانع في التخلص من الأخلاقيات المسيحية التي يعتبرها غير "حسنة أو ذات قيمة".[١٥]

لم ينتقد هيكل الأخلاق المسيحية بشكل مباشر في كتابه "الأحادية كرابط بين العلوم والدين"، ولكنه لم يكبح جماح نقده في أفضل كتبه مبيعًا: "لغز الكون "الصادر عام ١٨٩٩ والذي يضم معظم حواراته الممتدة عن الأخلاق. وبينما يرى بصلاحية المفهوم المسيحي للحب والرحمة، فإنه ينتقد ارتكاب المسيحية "لخطأ شديد برفعها للإيثار إلى درجة الأمر من جهة بينما ترفض الأنانية من جهة أخرى. أخلاقنا الأحادية تضمن كلا القيمتين الأخلاقيتين وتحصل الميزة الأفضل بتحقيق التوازن المثالي بين حب الجيران وحب الذات".[١٦] وبخ هيكل إذن الأخلاق المسيحية على تجاهلها لغريزة البقاء الإنسانية، والتي كانت مهمة جدًا في التطور تمامًا مثل الغريزة الاجتماعية. آمن هيكل أن على الإنسان أن يوازن بين الأنوية والإيثارية ليزدهر بيولوجيًا، ولذا أخطأت المسيحية—في رأيه—بالتركيز على الأخير لصالح الأول.

بعض مظاهر داروينية هيكل لها أثر بالغ على الأخلاق. أولًا؛ آمن هيكل أن الداروينية قوضت حرية الإرادة لصالح الحتمية الشديدة. وذلك عن طريق تقديم تفسير طبيعي لأصل نفسية الإنسان وسلوكه، لتثبت في النهاية أن حرية الإرادة ما هي إلا وهم". يقول هيكل: "أوضحت نظرية التطور أخيرًا أن (قوانين الطبيعة الأزلية) للعالم غير الطبيعي صالحة أيضًا للتطبيق على العالم غير الحي وكذا العالم الأخلاقي".[١٧] ذكر هيكل نقطة أخرى ولكنه لم يركز عليها عادة، وهي أنه بما أن الأخلاق تتطور كلية عبر عمليات التطور، فإنها قد تتغير بشكل تاريخي؛[١٨] وعليه فإن الأخلاق ليست خالدة أو ثابتة بل إنها في تغير مستمر.

لم يكن هيكل فيلسوفًا أخلاقيًا، وقد اعترف بهذا للعامة والخاصة، حتى إن معالجته للأخلاق تعتبر الجانب الأضعف في فلسفته الأحادية.[١٩] إلا إنه يرى أن للداروينية خمسة تأثيرات على الأخلاق— الشيء الذي تكرر كثيرًا في كتابات داروينيين آخرين عند تطبيقهم للداروينية على الأخلاق، التأثيرات الخمسة هي:

١) قوض داروين ثنائية العقل والجسم، وكرر بشكل متزايد فكرة التفرقة بين روح الإنسان وجسده.

٢) تتضمن الداروينية الحتمية؛ وحيث أنها تفسر سيكولوجية الإنسان كاملة من خلال مصطلحات قانون الطبيعة.

٣) تتضمن الداروينية نسبية أخلاقية، حيث تتغير منظومة الأخلاق عبر الزمن، كما تتغير القواعد الأخلاقية القائمة داخل النوع البشري نفسه.

٤) السلوك الإنساني وبالتالي الشخصية الأخلاقية قابلة للتوريث على الأقل جزئيًا.

٥) الانتقاء الطبيعي (وبالأخص الانتقاء الجمعي) هو القوة القائدة لإنتاج الأنَوية والأخلاق. لم تتفق كل النظريات الأخلاقية المستقاة من الداروينية مع نقاط هيكل الخمسة كلها بالطبع، ولكنها كانت ذات تأثير كبير. في الواقع كتب هيكل المنشورة في أوائل القرن العشرين—وبالأخص كتاب (لغز الكون) وكتاب (عجائب الحياة) الصادر عام ١٩٠٤، وكتاب (الخلود) الصادر عام ١٩١٧—كانت تقريبًا الكتب الأكثر شعبية في الحقبة الڤيلهيلمية باستثناء القصص والروايات. وقد تجلت في هذه الكتب أفكاره عن الأخلاق والقيم.

ويعد بارتولوميوس فون كارنيري Bartholomäus Von Carneri أول المفكرين الألمان الجادين الذي ربط الداروينية بالأخلاق، ولم يكن كارنيري فيلسوفًا أكاديميًا، بل كان سياسيًا

ليبراليًا أرستقراطيًا في البرلمان النمساوي. كتب كارنيري بغزارة عن الرابط بين الداروينية والأخلاق بعد أن ألقى أفكاره الهيجلية السابقة في البحر، بعد أن كان مؤمنًا بوحدة الوجود أصبح واقعيًا أحاديًا. ورغم كونه باحثًا غير تابع لمؤسسة علمية، إلا إنه حصل على دكتوراة شرفية في الفلسفة من جامعة فيينا عام ١٩٠١ في عيد ميلاده الثمانين؛ تكريمًا له على عمله في الأخلاق التطورية. نشر كارنيري أول أبرز أعماله في الأخلاق كتاب (الأخلاقيات والداروينية) في العام ١٨٧١، نفس العام الذي ظهر فيه كتاب داروين (أصل الإنسان). في هذا الكتاب وما لحقه من كتب ومقالات بحث كارنيري تأثيرات الداروينية على الأخلاق، رغم تجنبه استقاء المعايير الأخلاقية مباشرة من الداروينية. فرح كارنيري بنجاح الداروينية أخيرًا في تطوير رأي علمي متسق، وعلى أساس هذا الرأي العلمي يمكن بناء أية فلسفة أخلاقية. على ذلك كانت الداروينية مكونًا أساسيًا في آراء كارنيري، وليست مجرد نظرية علمية كغيرها من النظريات. وفي سبيل تكوين فلسفته الأخلاقية الخاصة درس كارنيري داروين وهيكل بجدية، وكون علاقات خاصة مع كثير من علماء الداروينية البارزين؛ بما فيهم هيكل الذي يكن له تقديرًا خاصًا.

اعتقد كارنيري أن أهم مساهمات داروين في الفكر الأخلاقي هدم فكرة حرية الإرادة، عبر تقويض الغيبيات وثنائية الفكر والجسد، والهدف من خلق الكون، وضعت الداروينية كل المفاهيم الإنسانية بما فيها الأخلاق تحت سيطرة قوانين الطبيعة. قال كارنيري لهيكل شارحًا: "بالنسبة لي قيمة داروين تكمن في أن الإنسان لم يعد بحاجة إلى أن يملك روحًا غيبية، كما أنه لم يعد هناك حاجة لتفسير سبب الخلق".[٢٠] من وجهة نظر كارنيري التفسير الداروينى لتطور الإنسان يوحي أن القانون السببي يتحكم في كل شئون الإنسان بشكل كامل. وأكد أن: "الإنسان مستهدف من قانون السببية العالمي، عقليًا وبدنيًا، تمامًا مثل أقل الخلايا أهمية وأتفه الذرات".[٢١] تضمن جزء من مشروع كارنيري تفسيرًا لكيفية حصول المبادئ الأخلاقية على صلاحية في عالم جبري.[٢٢]

إلا أن نسبية كارنيري الأخلاقية ترفض بوضوح مفهوم الحقوق الإنسانية الطبيعية وأخلاقيات القانون الطبيعي، وهي الأفكار التي يقدرها معظم الليبراليين الأوروبيين. وفي العام ١٨٧١ قال كارنيري: "أية منظومة أخلاقية متوافقة مع الداروينية لا تعرف أية حقوق طبيعية أو فطرية، ومن الممكن أن تتحدث فقط عن حقوق مكتسبة، حتى فيما يتعلق بالقبائل البشرية".[٢٣] حقوق الإنسان إذن مرنة تاريخيًا، ليست ثابتة ولا خالدة. تختلف بعض القواعد الأخلاقية من مجتمع لآخر، وفي العالم الدارويني الذي لا يحمل هدفًا ليس هناك قواعد يحكم على أساسها بصلاحية أية منظمة أخلاقية على حساب منظومة أخرى. وفي كتابه الأول دافع كارنيري عن الفكرة القائلة بوجود (خير مطلق) عام– ولعل هذا من مخلفات فكره الهيجلي – ولكنه عرفه بطريقة لم يضمنه فيها أية شيء قريب من أي قاعدة أخلاقية مطلقة. بالنسبة لكارنيري: "يظهر الخير المطلق... والانسجام التام بين الفكرة وتطبيقاتها العملية بغض النظر عن الصورة التي تظهر بها". لأن "الصورة التي تظهر بها" قد تتغير وفقًا للزمن والمكان، فـ"الخير المطلق" ليس مبدأ ثابتًا لا يتغير.[٢٤]

عندما فسر كارنيري ظهور الغريزة الأخلاقية لدى الإنسان انصرف عن نموذج داروين وهيكل. لم يصدق أنه لدى الإنسان غريزة اجتماعية، ولا حتى استعدادًا بيولوجيًا لسلوك إيثاري للتعامل. واعتبر أن ميول الإنسان البيولوجية الطبيعية أنانية بشكل أساسي، مع ميول نحو حفظ النفس وليس التضحية بالنفس. وبدلًا من تأسيس أخلاقيات الإنسان على أساس غرائزه الاجتماعية، قال كارنيري أن الأخلاق مبنية على أنها باعث للإنسان نحو السعادة (Glachseligheixtrieb).

يظهر هذا الباعث حين تضطرنا الظروف للعيش في مجتمع. وعلى هذا فالأخلاق ليست سمة بيولوجية وإنما تستقى من الحياة الاجتماعية. وكما وصف كارنيري الباعث للسعادة بأنه باعث تلذذي بالدرجة الأولى، لأن السعادة الحقيقية لا تنجم عن اللهاث وراء تحقيق اللذة

الجسدية. فالسعادة الحقيقية تكمن وراء السعي نحو تحقيق أهداف أسمى، خاصة تلك الأهداف المتعلقة بالخير للآخرين. إعادة تشكيل كارنيري (ورفضه) لأوامر كانت القطعية يشبه كثيرًا مبدأ النفعية: "تصرف دائمًا على أساس أن الحد الأقصى من رغباتك يمكن أن يصلح في نفس الوقت كأساس لأكبر سعادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس"[٢٥]، ولكن كارنيري انتقد النفعية لعدم وضعها المشاعر الأخلاقية في الاعتبار والتي تشكل الأساس لأفعال الإنسان.[٢٦]

ولئن كان وصف كارنيري لبواعث السعادة مشوشًا في بعض الأحيان، فإن مناقشته عن أصلها(الأخلاق)يبدو أكثر إرباكًا. على العكس تمامًا من تفسير كل من داروين وهيكل لأصل الأخلاق؛ فقد تجاهلت نظرية كارنيري تمامًا استخدام الداروينية كآلية. ورغم اعتناقه لنظرية الانتقاء الطبيعي وصراع البقاء كعامل أساسي في التطور الطبيعي في كتابه الصادر ١٨٧١، إلا أنه يبدو أن حماسه للانتقاء الطبيعي (وليس التطور البيولوجي) قد انطفأ.[٢٧] وبدلًا من أن يكون باعث السعادة نابعًا من صراع الوجود اعتقد كارنيري أن الباعث للسعادة هو طريقة يهرب بها الإنسان من صراع البقاء، على الأقل في أبشع صوره. كارنيري رفض بصراحة أن يبني نظريته الأخلاقية على الداروينية، خاصة مبدأ صراع البقاء، رغم إصراره أن تتوافق أية نظرية أخلاقية مع الداروينية، والتي يقصد منها أن تكون النظرية طبيعية بالكامل وجبرية.[٢٨] بالنسبة لكارنيري فإن الداروينية خدمت في هدم الوضع الراهن في النظرية الأخلاقية —خاصة الأخلاقيات المسيحية واليهودية والكانتية— أكثر منها عملها في بناء قواعد أخلاقية جديدة.

كانت كتابات كارنيري مؤثرة؛ من ناحية لأنه مزج بين الأخلاق الرفيعة السامية وبين الحتمية العلمية الجافة التي تستهوي معاصريه، خاصة العلماء. وبحلول العام ١٩٠٦ صدرت طبعة ثانية لأربعة من أصل ستة كتب كلها في الأخلاق والتطور، بل وصدر لكتابه الأشهر

(الإنسان الحديث) طبعة سابعة في العام ١٩٠٢. ورغم تأثيره إلا إن نظريته عن الباعث للسعادة لم تنتشر. إضافة لذلك رأي كثير من الداروينيين أن كارنيري أثبت بشكل كافٍ أن الداروينية لم تقيد انتشار الأخلاق والقيم، الشيء الذي كان مهمًا بالنسبة للداروينيين ليهدءوا به المخاوف من أن تؤدي الداروينية إلى الانحلال الخلقي أو الفساد.[٢٩] طور كارنيري علاقة قوية مع هيكل وفريدريش يودي Frieddrich Jodi الذي أظهر احترامًا وتقديرًا لأعمال كارنيري، كما فعل كثير من البيولوجيين الداروينيين؛ مثل أوسكار شميت Oskar Schmidt، ڤيلهيلم برير Wilhelm Preyer، وأرنولد دوديل Arnold Dodel، وهو أخصائي نبات دارويني في جامعة زيورخ، وقد أخبر كارنيري أن كتابه الأول (الأخلاق والداروينية) قام بدور كبير في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر في مساعدته للتخلص من معتقداته الدينية وتشكيل معتقدات علمية جديدة.[٣٠]

يأتي بعد كارنيري، الاقتصادي ألبرت شافل Albert E. F. Schaffle الذي كان أكثر المفكرين تأثيرًا ممن طبقوا الفكر الداروينيي على الأخلاق والنظرية الاجتماعية في العقد السابع من القرن التاسع عشر. ويعد كتابه الضخم والذي يقع في أربعة اجزاء (تركيب وحياة الجسم الاجتماعي) والذي طبع بين العامين ١٨٧٥ و١٨٧٨ أحد أول الأعمال المنهجية في الاجتماع في ألمانيا. في هذا الكتاب وفي غيره من المقالات كشف شافل الرابط بين مبادئ الداروينية والنظرية الاجتماعية. وعلى العكس من كارنيري، أصر شافل أن صراع الوجود حقيقة لا مفر منها، حتى للإنسان. تحليله للمجتمع كان مشبعًا بالتشبيهات والاستعارات العلمية، خاصة الداروينيي منها. يقول شافل: "إن التطور الاجتماعي ينتج على أساس قواعد التنوع الذي لا يتوقف، وكذا التكيف والتوارث عبر نتائج صراع الوجود".[٣١] ورغم ليبراليته في تطبيق الأفكار البيولوجية على علم الاجتماع، إلا إنه احتفظ بفكرة اختلاف صراع الوجود في البشر عنه في عالم الحيوان؛ فالصراع البشري يتضمن حلقات عنيفة—بما فيها الحروب—كما يتضمن منافسات سلمية—كما في الاقتصاد.

في الواقع لم يفسر شافل الصراع الداروينى للوجود كصراع عنيف بين البهائم أو صراع غير أخلاقي، وإنما قال أن الأخلاق مكون أساسي في صراع الإنسان للوجود. ومثلما فعل داروين فقد أكد على الصراع الجمعي في عالم البشر بين قبيلة وأخرى أو أمة وأخرى. الأخلاق والقانون يعملان على تقليل الصراع داخل المجتمعات، مما يزيد من قوة هذه المجتمعات عن نظيرتها وبالتالي تحقق مزية تنافسية.[٣٢] ولذا فصراع الوجود—بعيدًا عن الأخلاق المتناقضة—ينتج أخلاقا، كما يقول شافل: "القانون والأخلاق يظهران في ومن خلال الصراع الانتقائي للوجود؛ لأن كليهما مكون أساسي لقوة حفظ النفس الجمعية".[٣٣] عملية التطور إذن تنزع إلى إنتاج تقدم أخلاقي.[٣٤]

تشابه تفسير شافل لأصل ومكانة الأخلاق مع تفسير هيكل في نواحٍ كثيرة؛ فقد اتفق مع هيكل في أن الأخلاق في تغير دائم، مقوضًا أي نظام أخلاقي ثابت.[٣٥] كما ركز على ضرورة ألا تفضل منظومة الأخلاق الإيثارية على حساب الأنوية. يقول شافل: "حفظ النفس القانوني والأخلاقي يشبه تمامًا الحس المشترك، كلاهما متطلبات ضرورية للأخلاق الصحيحة".[٣٦] حفظ النفس لا يجب أن ينسخ الأخلاق بتاتًا، بل يجب ان يوازن كل فرد بين الأنوية والإيثارية.

أثرت أفكار شافل عن الأخلاق والتطور بشكل واضح على علماء آخرين، ولكن كتابًا آخرين كتبوا في الأخلاق والتطور وصلوا لجمهور أوسع. ماكس نوردو Max Nordau طبيب صهيوني بارز له كتابات عديدة شهيرة ناقشت العلاقة بين التطور والأخلاق. في أحد أشهر أعماله (الكذبات المألوفة لحضارتنا) دعا إلى إصلاح أخلاقي وبيّن التضارب المزعوم بين الأخلاق التقليدية والقانون الأخلاقي المبني على الداروينية. يقول نوردو في فرضيته بصراحة:

"نؤمن أن التطور في النوع البشري تمامًا مثل الأنواع الأخرى كلها يحتمل أن يكون قائمًا

فقط عبر الانتقاء الطبيعي—أو معززًا له على أي حال، كما نؤمن أن صراع الوجود يشكل في مفهومه الأوسع كل التاريخ الإنساني وكذا وجود معظم الأفراد المستترين، كما أن صراع الوجود هو أصل كل المفاهيم السياسية والاجتماعية. هذا هو رأينا السائد؛ التي ينبع منها كل مبادئنا في الحياة ومفهومنا للقانون والأخلاق".[٣٧]

هذا الكتاب الذي صدر لأول مرة عام ١٨٨٣، بيعت منه أكثر من خمسين ألف نسخة بحلول العام ١٩٠٣ وترجم للغات عديدة. لاحقًا في العام ١٩١٦نشر نوردو كتابًا كاملًا خصصه لتفسير العلاقة بين (الأخلاق وتطور الإنسان).

رغم إصراره على الوجود المطلق لصراع الوجود، إلا أن نوردو ابتعد عن تفسير داروين لأصل الأخلاق؛ نظرًا لإيمانه أن الأخلاق لا تنتج عبر الصراع بين البشر. اعتقد نوردو أن الأخلاق تنبع من الحاجة للحياة في مجتمع، وبذلك كان موقفه داعمًا لرأي كارنيري. حاول نوردو تفسير كيف يكوّن الناس مجتمعاتهم بشكل علمي. وقال إن صراع البشر يفترض أن يكون ضد البيئة، وليس ضد بعضهم البعض، الشيء الذي يكون المجتمعات وبالتالي الأخلاق. كما قال أنه قبل العصر الجليدي كان البشر يعيشون حياة إنعزالية، ولكن شح الموارد والضغوط التي صاحبت العصر الجليدي دفعت الإنسان للمشاركة. والحياة الاجتماعية تحتاج للأخلاق؛ ولذا أصبحت الأخلاق مهمة لبقاء الإنسان. كتب نوردو: "يجب أن يُنظر للأخلاق باعتبارها دعم وسلاح في صراع البقاء إلى حد كبير مثل حالة الطقس الحالي على الأرض وعلى أساسها تظهر الحضارات، الإنسان يمكن أن يوجد فقط خلال المجتمعات، والمجتمعات لا يمكن أن توجد بدون أخلاق".[٣٨]

اختلف نوردو مع التفسير الداروينى النموذجي للنزعات الأخلاقية باعتبارها فطرية. وبدلًا عن ذلك أكد نوردو على أن الأخلاق في المقام الاول هي عبارة عن تدريب على الذكاء الإنساني. أملت العقلانية حاجة البشر للتعاون ليتمكنوا من العيش، لذا تظهر الأخلاق

كرد فعل طبيعي على ضغوط البيئية. تقوم الأخلاق أساسًا بتحجيم أو تقليل الغرائز الأنوية الذاتية. ولكن نوردو اعتقد أنه مع استمرار عملية التطور فإن الفطرة السليمة تصبح ثابتة للأبد في طبيعة البشر البيولوجية. إذن كل الناس—مع استثناء طفيف—يملكون حسًا تعاطفيًا يسكن غرائزهم الأنانية.(٣٩)

رغم اعتقاد نوردو بأن الأخلاق لها جذور فطرية متجذرة في التعاطف مع الآخرين، إلا إنه لم يرَ أن القواعد الأخلاقية ثابتة. رفض نوردو تحديدًا كل الأخلاقيات الغيبية والنموذج الأخلاقي لكانت؛ نظرًا لتضمنهما قواعد أخلاقية ثابتة. على النقيض اعتقد نوردو أن التطور يتضمن تغيرًا أخلاقيًا تمامًا كالتغير البيولوجي. يقول نوردو: " ثنائية الخير والشر لا تعني فقط مجرد وجودهما؛ بل تعني أيضًا المعايير الخاصة بهما وأهميتهما من وجهة نظر المجتمع. وعلى هذا فالخير والشر ليسا مطلقين بل متنوعين، ليسا قاعدة ثابتة لا تتغير وسط ظروف البشر دائمة التغير، قاعدة تحدد على أساسها قيمة أفعال ورغبات البشر بلا جدال، ولكنها خاضعة لقواعد التطور في المجتمع ولذا ستكون في حالة مستمرة من التغيير وفي زمن مختلف ومكان مختلف يمثل الخير والشر جوانب أكثر تنوعًا. إذن ما نعتبره فضيلة الآن وفي هذا المكان قد تكون عيبًا في الماضي أو في مكان آخر والعكس صحيح.(٤٠)

النسبية الأخلاقية إذن كانت مكونًا أساسيًا في منظومة نوردو الأخلاقية التطورية. يعد چورچ فون جيتسكي George Von Gizycki وفريديريش يودي اثنان من الفلاسفة االأكاديميين المؤثرين في ألمانيا في القرن التاسع عشر المحاربين لتأثيرات الداروينية على الفكر الأخلاقي، اتبعا مقاربة كارنيري وإن كانا اختلفا معه في تفاصيل كثيرة. استخدم كلاهما الداروينية لتقويض الأنظمة السابقة للفكر الأخلاقي—تمامًا مثل كارنيري، إلا أنهما رفضا تطبيق الداروينية على محتوى الأخلاق. وعلى النقيض من كارنيري اعتنق كل من جورج وفريدريش صورة من صور النفعية الأخلاقية، وهي أحد أهم المبادئ التي طرحها بانثم

Bentham حتى قبل أن يولد داروين، ولذا فإن منظومتهما الأخلاقية تحوي القليل—أو قل أنها لا تحوي أي مضمون تطوري.

في العام ١٨٧٦، وفي بداية عمله الوظيفي، نشر جيتسكي كتابه (النتائج الفلسفية للاماركية الداروينية: نظرية التطور)، وبعدها بتسع سنوات ألحقه بمقال في صحيفة مشهورة عن "الداروينية والأخلاق". في هذين العملين قال أن نظرية التطور لها تأثيرات مهمة على الفكر الأخلاقي، حتى لو كان المرء لا يستطيع استنباط الأخلاق من التطور البيولوجي. يقول جيتسكي: "تكمن أهمية نظرية التطور فيما يتعلق بالأخلاق بشكل أقل في اشتقاق مبادئ خاصة كنتيجة عن التطور، وتكمن أهميته بشكل أكبر في استبدال كل ما يناقض ويضاد الطبيعة في التعامل مع المسائل الأخلاقية التي تحتاجها".(٤١) بالنسبة لجيتسكي يعني هذا إنقاذ الأخلاق والآداب من ربطهم بالدين، لخلق فلسفة أخلاقية دنيوية تحل محل المفاهيم الأخروية الذائعة. بالإضافة لذلك قال جيتسكي (كما فعل كارنيري) أن النظريات العلمية للتطور تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن كل المفاهيم تحدد من خلال السببية الطبيعية بناء على القانون الطبيعي —وهنا ضمن النظرية السديمية لكانت ولابلاس Laplace، ونظرية التماثل الجيولوجي لتشارلس ليل Charles Lyell، والتطور البيولوجي. هذه النظريات العلمية "تثبت شرعية صارمة، ومسيطِرة ودائمة، لنظام متكامل دقيق واستمرارية موحدة لكل الأحداث".(٤٢) أظهرت الداروينية على وجه الخصوص أن البشر خاضعون لنفس القوانين وغير منفصلين عن الطبيعة.

رغم انتقاد جيتسكي لداروين على تأكيده الزائد للانتقاء الطبيعي والصراع في الطبيعة، إلا إنه كان لا يزال يعتقد أن الانتقاء الطبيعي له وجاهته. استشهد جيتسكي بالانتقاء الجمعي لتفسير استمرارية السمات الأخلاقية في أي مجتمع. ضغوط الانتقاء تتطلب مجتمعًا مستقيمًا أخلاقيًا؛ لأنه إذا تخلى أي مجتمع عن الأخلاق سيحطمه مجتمع منافس يمارس إيثارية بدرجة

أكبر. كما اعتقد أن الفضائل الأخلاقية تحفظ المجتمع وبالتالي الحياة، لأن " لا فضيلة في حياة بدون قوة تحميها". مبكرًا في نفس المقال أكد أن الداروينية علمتنا أننا يجب أن "نحترم المفاهيم الإيجابية لأخلاق أنجح الامم في صراع البقاء". يبدو هذا وكأن حفظ الحياة في صراع البقاء هو الحكم الاخير على الأخلاق، ولكن جيتسكي رفض هذا بشكل واضح، لأن هذا يصفع الغائية، وهذا لا مكان له في النموذج الدارويني الطبيعي.[٤٣]

إذن ما هو المعيار المناسب للحكم على الأخلاق؟ اختار جيتسكي الأخلاق النفعية، حيث تتحقق السعادة الأكبر للعدد الاكبر من خلال أرفع المبادئ الأخلاقية. لم يستقِ هذا من الداروينية بالطبع، ولكن كما رأينا، اعتقد جيتسكي أن العملية الداروينية ستدعم الأخلاق النفعية عبر اختيار المجتمعات المتوافقة مع المبادئ الأخلاقية الحقيقة. لا تستطيع الداروينية أن تقدم أي معيار للأخلاق، لأن مجرد وجود سمات أخلاقية أو مبدأ أخلاقي لا يدل على قدرته على التكيف. فالتكيف غير كامل أبدًا، والظروف دائمة التغير، خاصة في الظروف شديدة الصعوبة، كالمجتمع الإنساني. تشير الداروينية إذن إلى أن الأخلاق دائمة التغير، وهذه الجزئية كانت مهمة بالنسبة لجيتسكي كاجتماعي متعاطف مدافع عن الإصلاحات الاجتماعية بعيدة المنال.[٤٤]

في أهم كتاباته وأكثرها تأثيرًا عن نظرية الأخلاق—بما فيها كتاباته خلال فترة التسع سنوات بين كتابيه عن الداروينية والأخلاق، وصف جيتسكي داروين كمؤثر أساسي في تشكيل فلسفته، إلا إنه أهمل الكلام عن نظرية التطور.[٤٥] سهلت الداروينية اعتناقه لأخلاق إلحادية، خاصة النفعية، ولكن التطور لم يضف أي شيء أساسي لنفعيته. وفي كتابه الذي يستهدف جمهورًا عاميًا؛ والذي صدرت طبعته الثانية عام ١٨٩٥ تحت عنوان (الفلسفة الأخلاقية) لم يذكر جيتسكي الداروينية إلا في فقرة واحدة، حيث نفى بوضوح أن تكون الأخلاق مستمدة من الطبيعة أو من قوانين طبيعية، بما فيها الداروينية. ولكنه في نفس

الفقرة أبقى على فكرة أن فساد الأخلاق لن يزدهر؛ لأن الانتقاء الجمعي الداروينيي سيتأصل الجماعات التي تستغل الضعيف.[٤٦] كان تأثير جيتسكي في ألمانيا عميقًا، ليس فقط عبر كتاباته ومحاضراته عن الفلسفة الأخلاقية في جامعة برلين، ولكن أيضًا عبر مكانته كعضو مؤسس في الجمعية الألمانية للثقافة الأخلاقية وعمله أيضًا كمحرر في دوريتها الأسبوعية.

أكد يودي؛ أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جامعة فيينا—والأستاذ السابق في الجامعة الألمانية ببراغ عام ١٨٩٦—ومحرر (دورية الأخلاق الدولية) أكد أكثر من جيتسكي على تأثير الداروينية على نسبية الأخلاق. إيمانه أن الأخلاق تطورت قاده إلى رفض مفهوم ثبات قوانين الأخلاق وعدم تغيرها. وبعد أن قارن الفكرة القديمة الخاصة بثبات الأنواع في المسيحية بمفهوم عصر النهضة عن ثبات الأخلاق؛ قال: " الأخلاق أيضًا نابجة عن التطور، كما أنها في حالة دائمة من التحول...ولكن التطور كله—كما تعلمنا الأحياء—هو تكيف من الفرد حسب الظروف المتغيرة في بيئته. مجموع المبادئ الأخلاقية—والتي تعتبر مبادئ سارية في أية أمة—لا تقدم سوى مفهوم التبادلية المطلوبة في اتجاه عملي لأفراد المجتمع، لمصلحة ومكسب المجتمع وأفراده".[٤٧]

إذا كانت الأخلاق كما يقول يودي ليست سوى تكيفًا مع بيئة متغيرة؛ إذن لا توجد مرجعية ثابتة للأخلاق. الأخلاق والقوانين الصالحة للتكيف مع مكان أو زمان بعينه، لن تكون صالحة للتكيف في ظروف مختلفة؛ لذا المبادئ الأخلاقية ليست ثابتة أو موضوعية ولكنها في تغير تطوري دائم.[٤٨]

ليست المبادئ الأخلاقية وحدها التي تتغير بل إن المعتقدات الأخلاقية في أي مجتمع "دائمًا ما تكون رجعية" كما وصفها يودي، وذلك لأنها تستغرق وقتًا حتى تتوافق مع الظروف المتغيرة.[٤٩] هذا يعني أن الوضع الراهن لا يمكن أن يعطي أي إمارات عن صلاحية أو قابلية أي مبدأ أخلاقي للتطبيق. منح يودي إذن شرعية داروينية لمحاولات الإصلاح الأخلاقي

والاجتماعي. ولكنه وبحلول العام ١٨٩٣ رفض بمنتهى السهولة فكرة حقوق الإنسان الأصلية. إذن لم يكن الإصلاح الاجتماعي الذي كان يدافع عنه يطمح إلى موائمة المجتمع مع أي مبدأ عام.[٥٠]

فلسفة يودي الأخلاقية تضمنت رأيًا وضعيًا متأثرا بشدة بالفكر الداروينى. لم يكتف يودي بدراسة داروين وهيكل بكثافة، كما لم يكتف بإقامة علاقات شخصية مع هيكل وكارنيري، بل إنه كتب العديد من الأعمال عن رائد الشك في العصر التنويري؛ دافيد هيوم، والفيلسوف المادي لودڤيش فيورباخ Ludwig Feuerbach، اللذان كانا يُكن لهما تقديرًا بالغًا. أخبر يودي صديقه ڤيلهيلم بولين Wilhelm Bolin أنه تمنى أن تصبح دوريته التي سماها (الدورية الدولية في الأخلاق) "حصنًا منيعًا ضد الروح الدينية التي تجول في الأرض لتقتل الأرواح".[٥١] ليس غريبًا إذن أن يتعاطف يودي مع رجل الدين اليساري الهيجلي المرتد: ديڤيد فريدريش شتراوس David Friedrich Straus في توجهه نحو الداروينية المادية. أخبر يودي صديقه كارل فون أميرا Carl Von Amira أنه أراد أن يقدم "وجهة نظر جديدة للناس، أن يقوم بما قام به شتراوس ولكن بشكل جيد. هذا هو أهم أهدافي وطموحاتي لأعمالي".[٥٢]

في كتابه المثير (الدين القديم والدين الجديد) والصادر عام ١٨٧٢؛ حاول شتراوس أن يستبدل العلوم الطبيعية المتضمنة لجرعات زائدة من آراء داروين بالمسيحية. كتابه الأقدم (حياة المسيح) والصادر عام ١٨٣٥ أحدث صدمة كبيرة في العالم المسيحي بتصويره للإنجيل ككتاب خرافات وليس كتابًا تاريخيًا. تخلى شتراوس عن المسيحية تمامًا في أعماله الصادرة في ١٨٧٢، والتي بيعت بسرعة هائلة حتى أن الطبعات العاشرة لكتبه ظهرت في خلال سبع سنوات. بعد عام واحد فقط من نشر داروين لكتابه أصل الإنسان، كان شتراوس يستخدم الداروينية للدفاع عن الحتمية النفسية. يقول شتراوس ان الروح ليست بأعظم من

العقل البشري، والعلاقات الأخلاقية مجرد تكيف نافع في صراع الوجود. يقول شتراوس أنه حتى الوصايا العشر فقدت قدسيتها، مجرد أن يلاحظ المرء أنها مجرد وسائل نافعة للإنسان في سياق تنافس التطور، أكثر من كونها أوامر إلهية واجبة.[٥٣] حصل كتاب (الإيمان القديم والإيمان الجديد) على شعبية واسعة، كما امتدحه هيكل، رغم تعرضه لنقد واسع في الدوائر الأكاديمية.[٥٤]

تعاطف يودي أيضًا مع عالم الأعراق (الإثنولوجي) الدارويني فريدريش هيلڤالد Friedrich Hellwald الذي شرح في كتابه (تاريخ الثقافة) الصادر عام ١٨٧٥ التاريخ الإنساني خلال إطار دارويني. استقبل كتاب هيلڤالد استقبالًا جيدًا لدرجة أنه توسع في فكرته في كتاب من جزئين صدرت طبعته الرابعة عام ١٨٩٦، وهو الوقت الذي ساهم فيه كتاب كثيرون في تطوير عمل هيلڤالد وتحديثه؛ مع الاحتفاظ بروح العمل الأصلي. قال هيلڤالد أن كل الثقافة الإنسانية، بما فيها الأخلاق والدين، تعمل كسلاح في صراع البشر للوجود. وبرفضه لأي أخلاقيات موضوعية، أعلن هيلڤالد عن إيمانه بمصدر واحد للحق؛ ألا وهو القوة والانتصار الذي تحققه في صراع الوجود. وبينما سخر منه داروين في مقال صحافي متهمًا إياه بالدفاع عن المبدأ القائل أن الحق مع القوة، تبنى هيلڤالد المقولة "حق الأقوى قانون طبيعي".[٥٥] بل إنه زاد وقال:

> في الطبيعة حق واحد يحكم، حق لا أحد، حق الأقوى أو العنف. ولكن العنف في الحقيقة هو المصدر الأعلى للحقوق، بدونه لا تصبح للقوانين قيمة. سأحاول بالتأكيد إثبات أنه حتى في التاريخ الإنساني حق القوي كان الحق الذي حافظ على شرعيته كل مرة".[٥٦]

رفض يودي وصف هيلڤالد القاسي لصراع البقاء، ولكنه اتفق معه في تقويض الداروينية لمفهوم حقوق الإنسان الأصلية أو القواعد الأخلاقية الموضوعية.[٥٧]

تبدو آراء هيلڤالد قاسية—وهي كذلك بالفعل— ولكنه لم يكن المفكر الداروينى الوحيد الذي يتجاهل حقوق الإنسان بازدراء ويغتبط بحق الأقوى في البقاء. وتحت تأثير هيكل وكارنيري، حاول ألكسندر تيله Alexander Tille بناء نظام أخلاقي ثابت قائم على التطور في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. رغم أنه كان أستاذًا للغة الألمانية وآدابها في جامعة جلاسجو حتى العام ١٩٠٠ إلا إنه اعتبر عمله في الأخلاق دعوته الأساسية. في العام ١٨٩٦ عبر لهيكل عن أمله في تغيير عمله لينتقل إلى حقل الفلسفة؛ وبذلك يتمكن من التركيز التام في أخلاقيات التطور.٥٨ ولنقص مصادر التمويل تخلى عن هذه الفكرة، وبعد تركه لوظيفته كمدرس في جلاسجو عاد إلى ألمانيا وعمل كمندوب لأعمال رجال الصناعة.

اتفق تيله مع كارنيري أنه في ضوء الداروينية، لم تعد فكرة الحقوق الإنسانية الداخلية مقبولة. قال: "لا تعرف الداروينية حقوقًا للإنسان يكتسبها عند مولده، ولا تعرف حقوقًا مكتسبة سوى تلك التي اكتسبها الإنسان بعمله".(٥٩) اعتقد تيله أن الكثير من المبادئ الحديثة مثل؛ الحرية، والمساواة، والسلام لا تتوافق مع نظرية التطور؛ لاعتمادهم على فكرة حقوق الإنسان الأصلية. يجب على هذه المبادئ ان تفسح المجال لصالح حق الأقوى في صراع الوجود، لأنه "في مقابل حق الأقوى، كل الحقوق التاريخية لا أساس لها من الصحة".(٦٠) لم يتفق تيله مع كارنيري وغيره من المفكرين الأخلاقيين الداروينيين فقط في أن الداروينية تتضمن نوعًا من النسبية الأخلاقية، ولكنه اتفق معهم أيضًا في وجود رابط قوي بين الداروينية والحتمية. في العام ١٨٩٥ أكد تيلهه: "إنكار حرية الإرادة، التي تؤمن بها نظم الأخلاق الميثولوجية، وإنكار مسئولية المجرم، التي ظهرت على أساسها عقوبات قاسية مثل القطع، كانت النتيجة المباشرة لظهور نظرية التطور كحل لمشاكل الأخلاق الأساسية".(٦١)

ورغم أن آراء شالماير Schallmayer كاجتماعي كانت أكثر إنسانية من آراء تيله؛ إلا أنه وافق تيله في رأيه عن تأثيرات الداروينية على حقوق الإنسان. في كتابه الفائز بجائزة

كروب Krupp عن تطبيقات الداروينية على التشريع أكد أن الأخلاق والقيم والقانون مثل جميع منجزات الإنسان الثقافية كانت مجرد أسلحة في صراع الإنسان الذي لا مفر منه للبقاء. ولذا فإن هذه المنجزات الثقافية ليست لها صلاحية دائمة أو عالمية. كتب شالماير: "لكن حق الأقوى، الذي يؤكد أهميته في انتصار الصفات المكتسبة الأفضل على الصفات الأقل تميزًا، لا يحكم فقط الطبيعة، بل يحكم تاريخ الإنسان الاجتماعي".[٦٢]

هناك داروينى آخر ركز على النسبية الأخلاقية كنتيجة لنظرية داروين كان أوجوست فوريل August Forel، الطبيب النفسي السويسري المشهور الذي كرس جزءًا كبيرًا من حياته للإصلاح الأخلاقي والاجتماعي. اعترف فوريل في مقال كتب فيه سيرته الذاتية أن آرائه تغيرت بشكل دراماتيكي بعد قراءته لكتاب داروين (أصل الأنواع) عام ١٨٦٥، لأنه لاحظ أن الداروينية تهدم ثنائية الجسد والعقل كما تهدم حرية إرادة الفرد.[٦٣] قامت نظرية التطور بدور كبير في كتاب فوريل (المسألة الجنسية) الصادر عام ١٩٠٥، والذي يؤكد فيه على أن " الأخلاق إذن نسبية، وقدراتنا على الاستنتاج لن تسمح لنا بملاحظة أي خير مطلق أو شر مطلق".[٦٤] بالإضافة لذلك —وكالكثير من الداروينيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين— لم ينظر فوريل للأخلاق باعتبارها فردية أو حتى ذات صبغة مجتمعية. ومثل داروين اعتقد فوريل أن الأخلاق مبنية على غرائز طبيعية متوارثة. قبل أن يكون طبيبًا نفسيًا كان فوريل خبيرًا في النمل، كان يلاحظ سلوك النمل الاجتماعي الغريزي. وبناء على إيمانه بالتطور لدى الإنسان، افترض فوريل أن السلوك الإنساني يشبه سلوك النمل، كلاهما تسيطر عليه الغريزة، وفوق كل الغرائز الغريزة الاجتماعية.[٦٥]

في كتابه (صحة الأعصاب والعقل) قال فوريل أن مشاعر التعاطف هي الأساس للأخلاق والآداب. هذه المشاعر" متأصلة وفطرية في الإنسان. وأي إنسان لا يملك هذه المشاعر يصبح وحشًا، أو مخبولًا، أو ولد ليصبح مجرمًا". ومثل داروين وهيكل قبله— اعتبر فوريل

السمات الأخلاقية للإنسان غريزية أو وراثية بالأساس. ركز فوريل على تفوق العوامل البيولوجية على حساب العوامل البيئية في تحديد سلوك الإنسان. في خطاب ألقاه عام ١٩١٠ ذكر أن البيئة أو التعليم يؤثران فقط على السمات الظاهرية للإنسان، بينما تتحكم السمات البيولوجية في السمات الأساسية الأكثر عمقًا. قال: "المشاعر الأخلاقية الوراثية المكتسبة بالميلاد لا يمكن أن تكون مغروسة؛ بل إن هذه المشاعر ما هي إلا دوافع يمكن تقويتها بالممارسة والتدريب أو إضعافها بالتجاهل".[٦٦]

انتشرت فكرة تحديد سلوك الإنسان عبر نزعاته البيولوجية الموروثة من أسلافه بشكل واسع في الدوائر العلمية والطبية بحلول القرن العشرين، والسبب في ذلك يرجع إلى انتشار الداروينية كما يرجع إلى فشل الطب النفسي في علاج كثير من الأمراض النفسية. عبر كل من داروين وهيكل عن رأيهما في أن السمات الشخصية مثل المثابرة، والاعتدال، والأمانة، والحلم تمامًا مثل الذكاء جميعهم سمات بيولوجية بالأساس وبالتالي قابلة للتوريث. فرانسيس جالتون (ابن عم داروين) وكذا معظم اليوجينيين مثل فوريل تبنوا الرأي القائل بقابلية السمات الأخلاقية للتوريث.

وهذا عين ما فعله بوشنر الذي خصص كتابًا كاملًا عن (قوة الوراثة وتأثيرها على التقدم الأخلاقي والعقلي للإنسانية)؛ وقد صدر هذا الكتاب عام ١٨٨٢. ذكر بوشنر في كتابه أن اكتشاف قوة الوراثة كان واحدًا من أعظم اكتشافات القرن التاسع عشر. رغم اعتماده للداروينية كقاعدة للانطلاق منها، إلا أنه اعتمد بشدة على كتاب الطبيب النفسي الفرنسي ثيودول ريبو Theodule Ribot؛ والمسمى (الوراثة) الصادر عام ١٨٧٥ ليعضد ادعاءته. كان أهم ما حاول ثيودل إثباته في هذا الكتاب هو أن الوراثة لا تقتصر على السمات البيولوجية بل تمتد إلى السمات العقلية والأخلاقية. "العادات، والرغبات، والنزعات، والمواهب، والقدرات، والغرائز، ومشاعر حب الجمال جميعها تنتقل بالوراثة، تمامًا مثل

المشاعر والعواطف، وكذا المزاجات والشخصية، والثقافة والحس الأخلاقي".[٦٧] ليست فقط الرغبة في الفضيلة والإيثارية هي ما يورث، ولكن أيضًا الرغبة في الرذيلة والجريمة. وبشكل واضح فإن دور البيئة فرعي في تشكيل سلوك الإنسان طبقًا لبوشنر. بالإضافة لذلك يعتبر بوشنر التعليم مهمًا، لأنه لا يعتقد أن المحتوى الأخلاقي نفسه وراثيًا.[٦٨]

تركيز بوشنر على "قوة الوراثة" مثير للاهتمام بحق؛ لأن بوشنر—مثل هيكل وفوريل— بقى ملتزما بمبدأ وراثة السمات المكتسبة (اللاماركية)، بينما استمر في نفس الوقت مقتنعًا بنظرية الانتقاء الداروينية.[٦٩] ولتركيز كثير من العلماء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على الصراع الثقافي بين ڤايتسمن Weismann واللاماركيين حول وراثة الصفات المكتسبة (والتي يرفضها ڤايتسمن)، فقد كانوا يرسمون خطًا فارقًا بين أنصار (الوراثة الصلبة)؛ وهم ڤايتسمن وأنصاره، و(الوراثة الرخوة). يبدو هذا التقسيم نافعًا أحيانًا في تصنيف المناقشات حول عملية التطور، إلا أن التقسيم يترك انطباعًا خاطئًا في أن اللاماركيين يظنون الوراثة لدنة وطيعة للغاية. لكن بوشنر، وهيكل، وفوريل، لا يناسبهم هذا التصنيف بسهولة؛ فبينما يرفضون نظريات ڤايتسمن لصالح لامارك؛ فإن موقفهم من (قوة الوراثة) يبدو أقرب إلى (الوراثة الصلبة).

في الواقع اعتنق كثير من داروينيي القرن التاسع عشر بما فيهم داروين نفسه موقفًا في الوراثة يتراوح بين القطبين المتضادين؛ (الصلبة والرخوة). قد يكون هذا راجعًا لتشددهم أو تساهلهم. يقدم فوريل مثالًا رائعًا على هذا؛ حيث ساهم تركيزه على قوة الوراثة في تمهيد ظهور اليوجينية في ألمانيا. ولكنه ظل مقتنعًا أن السمات المكتسبة يمكن أن تكون وراثية، كما اعترف بذلك لريتشارد سايمون Richard Simon؛ وهو تلميذ سابق لهيكل طور نظرية التطور اللاماركية في العقد الاول من القرن العشرين. وقال لسايمون إن أي تعديل يطرأ على توريث السمات المكتسبة يجب أن يسير ببطء شديد خلال عدة أجيال؛ لأن الأنواع

مستمرة نسبيًا.[٧٠] يبدو موقف فوريل إذن وسطًا بين (الوراثة الصلبة) و(اللسينة). بالنسبة لنا من المهم أن نفهم أن معظم الداروينيين—أيًا كان فهمهم لأسباب التطور—يعتقدون أن السمات العقلية والأخلاقية قابلة للتوريث، والكثير منهم ركز على تفوق الوراثة البيولوجية على العوامل البيئية.

التركيز على توريث السمات العقلية والأخلاقية أصبح واضحًا في مجال الطب النفسي، ليس فقط عبر تأثير فوريل. كان هذا التحول واضحًا منذ بدايات القرن التاسع عشر، عندما طمح الطب النفسي الناشئ، المتشبع بالمفاهيم الليبرالية عن التقدم وطواعية الإنسان للتغيير، في الوصول إلى علاج لتخليص المجتمع من الأمراض العقلية وما يترتب عليها من سلوك فاسد. أحد المنظرين البارزين الذين قرنوا بين نظرية الداروينية والطب النفسي كان الطبيب النفسي الإيطالي تشيزري لومبروزو Ceasre Lomborso الذي امتد تأثيره عبر أوروبا كلها. متأثرًا بداروين وهيكل طوّر لومبروزو نظريته (الرجل المجرم) في سبعينيات القرن التاسع عشر. اعتقد لومبروزو أن بعض الأنماط البيولوجية لديها استعداد وراثي (أو حتى إجبار وراثي) على ارتكاب الجرائم. وأملًا في إيجاد رابط بين السمات الجسدية والسمات العقلية أو الأخلاقية، درس لومبروزو السمات الجسدية لمجرمين معروفين، وبالأخص سمات الجمجمة وملامح الوجه. وقال في نظريته إن (الرجل المجرم) في أوروبا الحديثة مسألة تأسُلية (وراثية بعيدة الأصل) *(وهو ما عرف بنظرية المجرم الخلفي أو الرجعي) أي أنها ترتد وراثيًا إلى الأوربيين في بدايات مراحل التطور، حين كان الإنسان أكثر همجية وأقل تهذبًا. ذكر داروين رأيًا مماثلًا في كتابه (أصل الإنسان) عندما قال: "فيما يتعلق بالإنسان، بعض أسوأ الترتيبات التي تظهر عادة في العائلات دون سبب واضح، قد ترجع إلى بقايا مرحلة همجية، لم نفارقها بعدة اجيال".[٧١] أثمرت نظرية لومبروزو حقلًا جديدًا، علم الأنثروبولوجيا الجنائية؛ رغم رفض كثير من الاطباء النفسيين وعلماء الجريمة لنظرية المجرم الرجعي؛ إلا أن الكثير منهم اعتنق المفهوم القائل أن الإجرام مفهوم وراثي جزئيًا أو كليًا.[٧٢]

هانس كوريلا Hans Kurella الطبيب النفسي ومحرر أهم الدوريات في الصحة النفسية (المجلة المركزية في علم الاعصاب والطب النفسي) كان أحد أكبر المتأثرين بلومبروزو في ألمانيا، وقد كتب بغزارة في الأنثروبيولوجيا الجنائية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وما بعده. ركز كوريلا على التأثير الداروينى على أفكار لومبروزو وذكر ذلك في كتابته لسيرة لومبروزو وفي غيره من الكتب.[٧٣] وفي شرحه لنظرية لومبروزو وربطها بين المجرمين و(البدائيين)؛ فسر الرابط بين نظرية لومبروزو وأخلاقيات التطور قائلًا:

" تعتمد المقاربات النفسية بشكل أساسي على نظرية تطور الأخلاق، خصوصًا فرضيات داروين وسبنسر Spencer؛ حيث تعتمد الآراء المسيطرة السائدة حاليًا عن الأخلاق والقانون على توريث المشاعر، والتي تكتسب عبر التكيف مع متطلبات ثقافة صاعدة خلال فترات زمنية طويلة. بدون فهم كامل لأخلاقيات التطور لن يستطيع المرء أن يقدر هذا الجانب من فرضية لومبروزو؛ وعلى هذا الأساس سينتج المجرم مرحلة من التطور، توقف عندها بدائيون كثر اليوم".[٧٤]

لم يتبن كوريلا فقط رأي لومبروزو القائل بأن (الرجل المجرم) يعود أصله لبدايات عصر التطور، بل إنه ركز على "الشكل البدائي" للمجرمين. (أنظر الشكل ١-١)[٧٥] بالنسبة لكوريلا فإن مهمة الأنثروبولوجي الجنائي هي تحويل النظرية الأخلاقية والقانونية بوضعها تحت إطار العلم، خاصة العلم الداروينى.[٧٦]

روبرت سومّر Robert Sommer طبيب نفسي ألماني آخر متعاطف مع فكرة لومبروزو، وهو أستاذ للطب النفسي في جامعة جيسّين، وهو من نظم التجمع السابع للأنثروبولوجيا الجنائية في كولونيا في العام ١٩١١. اتفق سومر مع تأكيد لومبروزو على طبيعة وراثة السلوك الإجرامي، ولكنه لم ير أن (النموذج الإجرامي) "تأسّليًا اندفاعيًّا". رغم دعمه الكامل لفكرة (الرجل المجرم) فقد حذر من المخاطر المحتملة من تطبيق هذه النظرية سياسيًا بشكل خاطئ.

بدا هاجسه هذا وكأنه نظرة مستقبلية ذات بصيرة في ضوء الممارسات النازية اللاحقة.

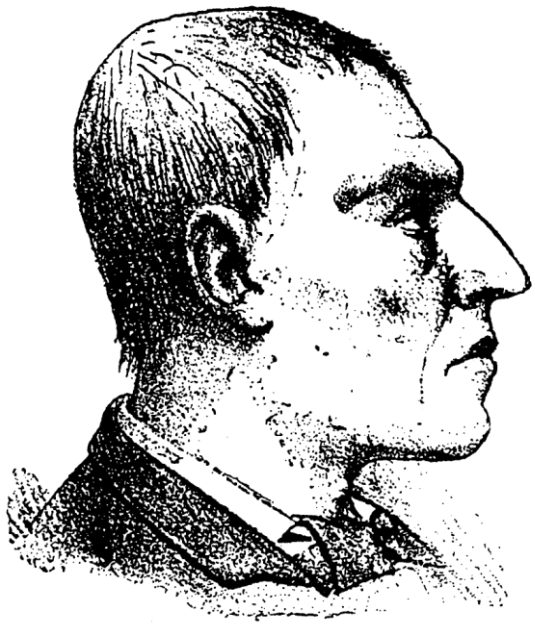

شكل ١-١ صورة من كتاب هانز كوريلا: حدود السلامة العقلية الأنثروبولوجيا الجنائية (١٩٠٣) Die Grenzen der Zurechnungsfohigkeit und die Kriminal-Anthropologie يظهر الرسم التشابه المزعوم بين رأس مجرم إيطالي وبين رأس القرد.

ردًا على الخائفين من تعرض الدولة للتهديد بسبب مبدأ (الرجل المجرم)، حذر سومّر من الخطر المقابل الذي اعتبره أكبر قائلًا:

"لقد أصبح الامر أوضح من ذي قبل، التطبيق غير النزيه لهذه النظرية يعرض الدولة لخطر تحولها لدولة بوليسية...من الممكن أن تصبح نظرية الرجل المجرم في أيدي الدوجمائيين المؤمنين بالنشوء العقائدي من رجال الدولة سلاحًا مرعبًا ضد الحرية الشخصية للأفراد. لا يكمن الخطر في تحويل الأمور لاتجاه الطب النفسي ولكن خطر هذه النظرية العلمية بتطبيقاتها المحتملة غير الصحيحة التي لا يمكن تجاهلها

الحقيقي يكمن في الدولة الجبرية القسرية التي تعتقل بلا قيد والتي قد تطبق النظرية بشكل خاطئ. وتعتبر (لجنة الثورة الفرنسية لسلامة الجمهور) بسلطتها غير المحدودة على العناصر التي تشكل خطرًا على الدولة هي نظام الدولة الذي يناسب جدا نظرية الرجل المجرم".[٧٧]

وبينما اعتبر سومر اعتقال بعض من تنطبق عليهم نظرية (الرجل المجرم) مهمًا لحماية المجتمع، إلا أنه حاول تضييق نطاقها قدر الإمكان.

بقيت أفكار لومبروزو محل جدل في ألمانيا وغيرها، ولكن فكرة (الرجل المجرم) أو على الأقل المسألة الوراثية قامت بدور كبير في السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي الذي اكتسب أرضًا جديدة بثبات في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوساط الطب النفسي بألمانيا. إيميل كريبلين Emil Kraepelin واحد من أبرز أطباء النفسيين في ألمانيا، وهو أستاذ في جامعة ميونيخ (وقبلها كان أستاذًا في هايدلبيرج) ذكر في مذكراته تأثير لومبروزو على تطوره الثقافي.[٧٨] في كتابه المؤثر في الطب النفسي دعم كريبلين فكرة أن (الخبل الأخلاقي) حالة وراثية، لا يملك الإنسان أن يتحكم في موازنة مشاعره الأنانية. ولا يملك التعليم أو التدريب علاجًا لهذه الحالة، لأنها حتمية بيولوجية.[٧٩] في طبعة كتاب كريبلين الصادرة عام ١٩٠٤ غير العنوان (الخبل الأخلاقي) وكتب عوضًا عنها (الرجل المجرم)، وهو العنوان الذي يؤكد السمات الوراثية للرذائل والسلوك الإجرامي.[٨٠] اتفق الطبيب النفسي أوتّو بينسڤانجر Otto Binswanger مع كريبلين على أن (الخبل الأخلاقي) حالة وراثية يصعب على الطب النفسي علاجها حيث أنها خارج نطاق تعامل الطب النفسي. وفي مقال كتبه عام ١٨٨٨ (وهو المقال الذي أوضح فيه أهمية الداروينية بالنسبة له) سمى الذين يعانون من (خبل أخلاقي)، "أفراد ضامرون مشوشون ولدوا عبر اضمحلال وانتكاس وراثي". ينتهي بهم الأمر إلى مجرمين.[٨١]

في العام ١٩١٦ لخص يوجين بليولر Eugen Bleuler –مدير عيادة للصحة النفسية في زيورخ بعد فوريل– إجماع المجتمع الطبي النفسي في كتابه (دليل الطب النفسي)؛ والذي كان ذائع الاستخدام في الجامعات لتدريب الجيل الجديد من الأطباء النفسيين. عند مناقشته لأصل المرض العقلي بدأ بما اعتبره هو أهم الأسباب: الوراثة. وفسر ذلك بأن المشاكل العقلية تدور في نطاق العائلات مسببة المرض العقلي؛ لذا التركيب البيولوجي للفرد هو أهم العوامل التي ينتج عنها المرض العقلي. لا يرث الإنسان مرضًا عقليًا بعينه، ولكن الاستعداد للإصابة به، إذن ليس كل من لديه ضعفًا عقليًا تظهر عليه الأعراض المرضية. يعكس تصنيف بليولر للمرض العقلي الرأي السائد بين أطباء النفس الالمان في هذا الوقت بأن الأخلاق سمة بيولوجية. وضع بليولر في قائمته المبذرين، والمشردين، و(المخبولين أخلاقيًا) كمثال على هؤلاء الذين يعانون من مرض عقلي. واتفق مع لومبروزو أن الذين يعانون من (خبل أخلاقي) معرضون أكثر ليكونوا مجرمين، كما انهم غالبًا ما يكونون غير اجتماعيين وخجولين في أعمالهم. وبينما كان بليولر ومعظم أطباء النفسيين في ألمانيا في أوائل القرن العشرين لا يعتقدون أن الاوامر الأخلاقية فطرية؛ إلا إنهم اعتقدوا أن الرغبة في التصرف بشكل أخلاقي سمة بيولوجية فطرية. أما هؤلاء الذين تنقصهم القدرات الأخلاقية فإنهم منحرفون ويشكلون خطرًا على المجتمع.(٨٢)

وجدت فكرة الأطباء النفسيين عن وراثة السمات الأخلاقية أرضًا خصبة في الحركة اليوجينية التي ظهرت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين. أصبح الكثير من الأطباء النفسيين مدافعين بارزين عن اليوجينية بما فيهم فوريل، وكوريلا، وسومّر، وبليولر. كما استخدم شالماير، وبليولر، والكثير من اليوجينيين شبح (الرجل المجرم) أو (المضطرب أخلاقيًا)؛ لحث معاصريهم على تبني السياسات اليوجينية. أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة بيرلين فيلكس فون لوشان Felix Von Luschan يوجيني بارز اعتقد أن اليوجينية هي مفتاح القضاء على الجريمة. في رأيه أنه "يجب أن نعتبر المجرم مجنونًا خالصًا،

غير مسئول عن أفعاله الخبيثة...فالجريمة في معظم أحوالها مرض وراثي سببه إفراط أحد أباء أو أسلاف المجرم في الشراب". ولأن الجريمة مرض وراثي؛ فعلاج هذه المشكلة تكون "بالعزل الكامل والدائم للمجرم".[٨٣]

هناك تطبيقات عديدة في السياسة الاجتماعية لفكرة وراثية الأخلاق أو الرذيلة بيولوجيًا؛ من ضمنها: التعليم، والعدالة، والعقوبات الإصلاحية، وسياسات الزواج، وتنظيم النسل. إلى جانب موضوعات الزواج والإصلاح الجنسي، الذي سنعود له ثانية في فصل لاحق، تعد المسئولية الشخصية أحد المسائل الحاسمة التي تنبعث مع ظهور الحتمية البيولوجية. كيف يمكن للمجتمع أن يحمل الأفراد مسئولية سلوكهم إذا كانت هذه السلوكيات —أو على الأقل مجرد نزوعهم لهذ السلوك— مبرمجة داخل تركيبهم البيولوجي؟ كثير من الأطباء النفسيين بعد نفيهم حرية الإرادة قالوا إن المسئولية بشكلها القديم كانت مضلِّلة. إلا أنهم رأوا أن العقوبات يجب أن تحدد بناء على الخطر الذي يشكله المجرم على المجتمع، وليس على جريمة بعينها. قد ينجم عن العلاج الطبي للجرائم فترات اعتقال طويلة، ولكنها عدالة طبية وليست عدالة جزائية.[٨٤]

مسألة تضمن الداروينية للمادية أو الحتمية مسألة فلسفية خارج نطاق هذا البحث، ولكنني أوضحت تاريخيًا أن الكثير من الناس اعتبروها كذلك بالفعل. تقييم مساهمات الداروينية في ظهور النسبية الأخلاقية أصعب بكثير. بالتأكيد أعلن الكثير من الداروينيين موت المسيحية، وكذا الكانتية، أو أي نظام ثابت للأخلاق، وزعموا أن النسبية الأخلاقية كانت نتيجة طبيعية للرأي الدارويني في الأخلاق. رفضوا القانون الطبيعي التقليدي للأخلاق الذي كان شديد التأثير في عصر النهضة. لذا يبدو أنه من الطبيعي أن نقول إن للداروينية دور في نشر أفكار عن النسبية الأخلاقية.

إلا أن الداروينية كانت عامل من بين عوامل أخرى في الاتجاه نحو تأريخ الأخلاق وتقويض

قانون الأخلاق الطبيعي في ألمانيا في القرن التاسع عشر. كان هناك صورًا أخرى من التاريخانية (قبل وبعد داروين) بارزة في ألمانيا وفي أوروبا، والتي ساهمت في التوجه نحو الأزمة الأخلاقية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. التاريخانية —وهي الفكرة القائلة أن كل شيء في تحول دائم وأي مفهوم يمكن فهمه كجزء من العملية التاريخية— كانت مظهرًا مشتركًا لمعظم الأنظمة الفكرية في القرن التاسع عشر في أوروبا، بما فيها الهيجيلية والماركسية.[٨٥] أظهر المؤرخ جيمس كلوبنبرج James Kloppenberg أن الحركة الثقافية تجاه الشك في المعرفة وتاريخينية الأخلاق ضمت الرافضين لتطبيق العلوم على الأخلاق. رفض الفيلسوف ڤيلهيلم ديلتاي Wilhelm Dilthy—بفصله الحاد بين العلوم الطبيعية (بما فيها الداروينية بالطبع) والعلوم الإنسانية (بما فيها الأخلاق)— رفض أي نوع من الأخلاق التطورية، وكذا فعل معظم الكانتيين الجدد.[٨٦] النسبية الأخلاقية لدى هيجل، وماركس، وديلتاي لا تدين بشيء للداروينية، ولكنها انبثقت من أفكارهم التاريخانية. الداروينية كانت صورة من صور التاريخانية بين صور أخرى، ولكنها عززت النسبية الأخلاقية بإضفاء القداسة العلمية عليها. بالنسبة لبعض المتابعين كان هذا أكثر أهمية بين كل ما يستطيع المتفلسفين هيكل وديلتاي فعله.

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

لماذا هذا الكتاب؟! ٦

تمهيد ٨

مقدمة ١٣

الجزء الأول
وضع أسس جديدة للأخلاق

الفصل الأول: أصل الأخلاق وصعود النسبية الأخلاقية ٣٨

الفصل الثاني: التقدم التطوري باعتباره الخير الأسمى ٦٩

الفصل الثالث: تنظيم الأخلاق التطورية ٩٠

القسم الثاني
الحط من قيمة الحياة البشرية

الفصل الرابع: قيمة الحياة وقيمة الموت ١٠٩

الفصل الخامس: شبح النقص: الحط من قيمة المعاقين و"غير المنتجين" ١٣٠

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس: علم عدم المساواة العرقية ١٥٢

القسم الثالث
التخلص من الضعفاء

الفصل السابع: التحكم في النسل: الانقلاب على الأخلاق الجنسية التقليدية ... ١٨٨
الفصل الثامن: قتل "غير اللائق" ٢١٣
الفصل التاسع: الحرب والسلام ٢٤٠
الفصل العاشر: الصراع العرقي والإبادة ٢٧١

القسم الربع
التبعـات

الفصل الحادي عشر: أخلاق هتلر ٣٠٩

خاتمة ٣٣٩

الهوامش ٣٤٧

قائمة المراجع ٤٤٤

الفهرس ٤٩٧

مركز براهين للأبحاث والدراسات

Braheen Center for Research and Studies